اسمهان
والمخابرات البريطانية



سليم طه التكريتي

اسمهان

والمخابرات البريطانية

تأليف
سليم طـه التكريتي

منشورات دار العصور ـ بغداد
١٩٨٨

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (١٠٣٤٢) لسنــة ١٩٨٨

مطبعة الانتصار - خالد البربوتي - بغداد



اسمهان!

«كوكب دري وهاج سطع نوره على غير انتظار»
«في سماء الجمال، والفن، والغناء»
«فراح يحلق ويسمو حتى بلغ اجواء الجوزاء»
«ولكن! .. وعلى حين غرة هوى ذلك النجم الساطع»
«نثارا على ارض البسيطة، ولم يبق منه من اثر»
«سوى ذكرى ذلك الصعود الشاهق، والهبوط المريع!»
«عن بعض الاسرار الخفية لهذا الكوكب الدري»
«يتحدث هذا الكتاب!»

بغداد ـ الاول من نيسان ١٩٨٨ ـ سليم طه التكريتي

كلمة اولى

سمعت غناء اسمهان وانا على مقاعد المدرسة الابتدائية بتكريت خلال سنة ١٩٣٢ . وكانت اولى ما سمعته من اغنياتها، هي اول ما غنته، وهي قصيدة «اين الليالي»

اين الليالي اللواتي سببت ألمي
يا ليلة بعدها عيناي لم تنم

ولم اعرف اسم الشاعر الذي نظمها حتى الآن. كنت وانا في الصف الرابع الابتدائي اطالع مجلة «الرياضة البدنية» الشهرية التي كان ينشرها المرحوم محمد فائق الجوهري في القاهرة، والتي كنت استعيرها من صديق ابي واعمامي وجارهم، المرحوم «عباس خضير الديثان». وفي احد اعداد المجلة المذكورة، وجدت اعلانا منها تعلن فيه عن اصدارها مجلة اسبوعية باسم «الملاهي المصورة» وتذكر بدل الاشتراك السنوي بالعملة المصرية. وسرعان ما فزعت الى استاذي شاكر علي التكريتي مدرس «الاشياء» في الصفين الخامس والسادس آنذاك، ارجوه ان

يدبـر لي امـر ارسـال بدل الاشتـراك في المجلة المذكورة، فاخذني الى دائرة البريد التي كانت مجـاورة للمـدرسـة، واشتـرى لي «كوبونات» بالعملة الانكليزية، وبما يعادل نصف جنيه مصري، قيمة الاشتراك لمدة ستة اشهر. واتذكر بان المبلغ كان يعـادل نصف دينـار، استطعت ان اوفـره من «عشـرات الفلوس» التي كان جدي وجـدتي ينفحـاني بها كل اسبوع. وضع الاستاذ شاكر قسيمة الاشتراك بعد ان كتب عليهـا عنـواني، وكـوبـون الاشتـراك في مظـروف، وسلمه الى موظف البريد الذي سارع الى ختمه بالختم الرسمي الذي كان يحمل الكلمات والارقام الانكليزية.

وفي منتصف شهـر كانـون الثـاني ١٩٣٣، وكنت آنذاك في الصف السادس الابتـدائي، وصلني العـدد الاول من مجلة «المـلاهي المصـورة» وعلى الصفحـة الاولى من غلافه، وكان من الورق الصقيل جدا، اجمل صورة رأيتها لاسمان وهي متشحـة بوشـاح ابيض. ومنـذ ذلـك الـوقت وحتى الآن اكـاد لا اعثـر على صورة لاسمهان او حديث عنها الا واحتفظ به، فضلا عن احتفاظي باشرطة لمعظم اغانيها

و«طقطوقاتها».

ولقد تعاظمت شهرة اسمهان، وذاع صيتها بسرعة خارقة، وعلى الاخص بعد ان ظهرت لاول مرة على الشاشة الفضية مع اخيها المرحوم «فريد الاطرش» في فلم «انتصار الشباب» الذي اخرجه «احمد بدرخان» في سنة ١٩٤١، وما لبثت ان بلغت القمة في فيلمها الثاني والاخير «غرام وانتقام» مع يوسف وهبي في الفترة ١٩٤٣-١٩٤٤.

ولم تكن الموهبة التي تحلت بها اسمهان لتقتصر على عذوبة الصوت، وحلاوته، ودقة الاداء حسب، بل كانت هناك حنجرتها الذهبية النقية الرنانة، وكان هناك جمالها الفتاك، بوجهها الناصع وعينيها الخضراوين، واهدابها الوطف، و«الشامة» الطبيعية التي تزين خدها، الامر الذي جعل كل من كان يراها من كبار القوم عرباً ام غير عرب، يفتنون بها في الحال، ويروحون يدورون حولها مثلما تدور الفراشة حول النار الى ان تحترق!

ان هذا الكتاب الذي نقدمه للقراء يقتصر على ناحية واحدة من اسرار حياة اسمهان التي اكتنفتها الاسرار من كل صوب وصنف، هذه الناحية هي تورطها، مثل كثيرات من امثالها المغنيات والممثلات في الغرب والشرق، في خدمة «الجاسوسية». ترى كيف زلت قدم اسمهان، بعدما بلغت الشهرة وانصب عليها المال مدرارا، بالاضافة الى منزلتها القبلية كواحدة من اميرات عشيرة «الطرشان» امراء جبل الدروز؟. من الذي اغراها بهذا، ومن كان المسؤول عن التنكر لها بعد ان اقترفت جريمة التجسس للبريطانيين خلال الحرب العالمية الثانية، ومن الذي خطط لمصرعها والتخلص منها؟ كل هذه الاسرار، والاجوبة على هذه الاسئلة سوف يجدها القراء في هذا الكتاب، الذي اعتمدنا فيه على اهم الوثائق التي لا يرقى الشك اليها. وبقي على القارىء ان يقول رأيه بصراحة في الكتاب بعد ان يقرأه وان لا يبخل علينا بالنقد الموجّه البناء، المنقى من عقدة الحسد، والعقم الفكري، والله الموفق.

المؤلف

الفصل الاول

سطور في حياة اسمهان



اسمهان أميرة عجيبة وغريبة جدا من أميرات جبل الدروز الذين عرفوا بمقاومتهم العنيفة العنيدة للحكم العثماني ، وما اعقب ذلك من الاحتلال الفرنسي فلقد بقي الدروز على مختلف حقب التأريخ التي مرت بهم ، مشبعين بالروح الاستقلالية لديهم ، وبمقتهم الشديد لكل من يحاول التسلط عليهم واخضاعهم لارادته . ولم تكن ثورات الدروز ايام الحكم العثماني الذي استمر عدة قرون لتخمد ، الا لتستعر نيرانها من جديد ، الى ان وقعت الحرب العالمية الاولى فكانت سوريا في اول الامر من الاقطار التي وعد الحلفاء ، الانكليز الفرنسيون ، شريف مكة الحسين بن علي بمنحها الاستقلال التام بعد الحرب مباشرة ، جزاء الكفاح الدامي الذي خاضه احرار العرب في سوح القتال ، ومعظمهم من العراقيين ، في الحجاز ومن ثم في فلسطين وسوريا برمتها .

ولكن الحلفاء ، وقبل ان يبين فجر انتصارهم في الحرب العالمية الاولى ، سرعان ما تنكروا لكل ما قدموه للعرب من عهود ووعود ، وتآمروا فيما بينهم على اقتسام «الغنيمة» العظيمة ، ونعني بها البلدان العربية التي كانت تخضع للحكم العثماني ، حيث بسط الانكليز سيطرتهم على العراق ، وجعلوا سوريا ولبنان من حصة حليفتهم فرنسا ، وفرضوا انتدابهم على فلسطين لينفذوا اهداف الصهيونية في اقامة دولة اسرائيل .

وما ان بانت معالم الجريمة البشعة التي ارتكبها الانكليز والفرنسيون بحق الامة العربية المجاهدة حتى كان شعب العراق العظيم هو السباق قبل غيره في الرد على هذه الجريمة ، واشعال نيران ثورته التحررية الكبرى ، ثورة العشرين ، بوجه

الانكليـز وارغـامهم على القبـول بالامـر الـواقـع ، الا وهـو التخلي عن الاحتـلال والانتداب والاستجابة لمطاليب العراق، في الحرية والاستقلال.

ولقد كانت ثورة العراق هذه هي المحرك الاول، والدافع الاشد للثورة السورية في سنة ١٩٢٥، والتي كان لجبل الدروز السهم الوافر فيها.

ولـدت اسمهـان من ابـوين كريمين من اسـرة «الطرشـان» التي تحكم جبل الـدروز. فابـوها هو «فهد الاطرش» وامها هي السيدة «عالية الاطرش». وقد ذكر ان ولادة اسمهـان كانت في اليـوم الخـامس والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩١٥، ولكن هنـاك من يقـول بان ولادة اسمهان كانت في سنة ١٩١٢. كان اسمها قبل ان تشب «اميلي» وهذا هو اسمها الحقيقي، اما اسمهان فهو الاسم الذي عرفت به في عالم السينمـا والغنـاء، وكـانت قبل ذلك قد استبدلت اسمها «اميلي» باسم آخر هو «آمـال» غيـر ان اسم اسمهان هو الذي لصق بها حتى مصرعها وما بعد وفاتها، والى الان، نقول ما ان شبت اسمهان عن الطوق حتى كانت فتنة للناظرين لما امتازت به من جمـال اخـاذ، وصـوت رائـع، وقـامة ممشوقة، وابتسامة اسرة، ولذلك كان ابن عمها «الامير حسن الاطرش» اول من انجذب اليها، وأبى ان يدع هذه الدرة النادرة ان تضيـع من يده، فتـزوجهـا، وراح يبـذل لهـا من روحه ومن ماله وشهرته ما يشبع نهمها ورغباتها.

ولكن النـزوات التي كانت تعصف في رأس اسمهـان، ابت ان تجعلهـا ترضى بمـا نالتـه لدى ابن عمهـا من مودة وحب، وتقبـل، لكـل ما كانت تبتغيـه، فاشتدت في تمـردهـا على روابـط القربى والزوجية، فلم يكن امام حسن الاطرش الا ان يطلقها مرغما فيما بعد، ويتزوج اخرى غيرها.

يقـول الـدكتـور «بيضا» صاحب معمل اسطوانات بيضا فون» في لبنان وبقية العالم العربي، عن حسن الاطرش، بانه تزوج من اخرى ولكنه كان ما يزال يحب اسمهـان، ويحن اليهـا، وحين سألـه «محمـد التابعي» صاحب مجلة «اخر ساعة» الشهيرة في مصر، بقوله «سمعت انها لا تحبه» اجاب بيضا قائلا هذا صحيح، فقال له التـابعي لمـاذا؟ فاجـاب «لانـه احبهـا واحبها جدا!.. وحبه هذا جعله ضعيفاً، واسمهان لا تحب، ولا يمكن ان تحب الرجل الضعيف!».

ويقـول التـابعي ايضـاً ان اسمهـان «ليس عندها وقت للحب الذي يتغنى به الشعـراء. . كانت تؤمن في قرارة نفسهـا انهـا قصيـرة الاجـل، وان نصيبها من هذه الحيـاة قليـل» . وكـانـت تردد على مسـامـع التـابعي دوماً «استحملني! كلها سنة او سنتين كمان وترتاح مني! انا عارفة ان موتي قريب!».

منـذ سنـة ١٩٢٩ بدأت اسمهـان تدنـدن بالغناء ولم تلبث ان رحلت مع امها واخـويهـا فريـد وفؤاد الى القاهرة، فانصرفت الى الغناء اول الامر، وكانت في سنة ١٩٣١ تغني في صالـة «مـاري منصـور» في شارع «عماد الدين» بالقاهرة. . وحين برزت في عالم الغناء. لم يكن احد ليصدق ذلك، لانها اميرة، ومن اسرة الطرشان امراء جبل الدروز، ولا يصح لها ان تحترف الغناء.

كان اول اجـر تنـاولتـه اسمهـان عن اول فلم غنت فيـه هومائـة جنيه في سنة ١٩٣٩، الـذي غنت فيـه اغنيـة «محلاها عيشة الفلاحة!» ثم ارتفع الاجر الى الف وخمسمـائـة جنيـه في سنـة ١٩٤١ من فلم «انتصـار الشبـاب». امـا فليمهـا الثاني والاخير «غرام وانتقام» فقد تناولت عنه اثنى عشر الف جنيه في الفترة ١٩٤٣-١٩٤٤.

ولقـد تعـرفت بالموسيقار محمـد عبـد الوهاب قبل غيره من الفنانين، حين كانت تزور القاهرة بين فترة واخرى.

وبعد ان طلقها زوجها حسن الاطرش في سنة ١٩٢٩، كما ذكرنا ذلك آنفاً، تزوجت في سنـة ١٩٤٠ بعقـد عرفي من المخـرج احمـد بدرخان كيما تحصل من وراء ذلـك على اذن بالاقـامـة في مصـر، واخيرا تركت بدرخان لتتزوج من المخرج احمد سالم الذي اتهم بالاشتراك في تدبير امر اغتيالها سنة ١٩٤٤.

كان جمـال اسمهـان، وعـذوبـة صوتها، وتفوقها في الغناء والتمثيل، قد بهر علية القوم ليس في مصر حسب بل وفي جميع البلدان الاخرى. فراح الباحثون عن اللذة من «باشوات» و«امراء» «ووزراء» «وجنرالات» وغيرهم، يتهافتون عليها تهافت الـذبـاب على الـدبق. كان من بين هؤلاء احمـد حسنين باشا رئيس ديوان فاروق، وزيـر النسـاء الشهيـر في مصـر، وبطـل الفضائح الغرامية العديدة، ويقول التابعي «ولـولا الصـداقـة التي قامت بين اسمهـان واحمـد حسنين باشـا لمـا كان ماكـان

ولاتصلت الحياة في عام ١٩٤٤ هيِّنة رضيَّة بينها وبين زوجها احمد سالم، ولما كان حادث اطلاق الرصاص، ولما سافرت الى «رأس البر» ولما لقيت منيتها في الطريق!..

يقول «فؤاد الاطرش» اخ اسمهان في ذكرياته عنها التي نشرتها مجلة «المصور» المصرية سنة ١٩٦٠ في خمس عشرة حلقة، ما يلي «تزوجت اسمهان من ابن عمها الامير حسن الاطرش استجابة لامري اولاً، وللتقاليد الدرزية التي تمنع زواج الدرزية من غير الدرزي، وعاشت مع زوجها في الجبل متبرمة بالحياة التي حرمتها من الفن ومن حياة الاضواء، وفي القاهرة ولدت اول مولود هو ابنتها الوحيدة «كاميليا» التي تركتها لدى جدتها في القاهرة، لتكون ذريعة لديها للعودة الى القاهرة.

وحدث في احدى المرات ان طلبت اسمهان الى اخيها بان يرافقها الى دمشق لشراء بعض الثياب، وقد صحبها في هذه الرحلة ابن عمها الامير يوسف الاطرش، فنزلا الفندق الكبير هناك واحتلت غرفة لوحدها، وحجز ابن عمها يوسف الاطرش غرفة اخرى له.

وفي منتصف الليل دق احد خدم الفندق باب غرفة يوسف الاطرش بعنف فايقظه وقال له: «قم يا امير قم.. ان الاميرة في غيبوبة.. وان بدنها بارد كالثلج»، واندفع يوسف الى حجرة اسمهان ليجدها مستلقية على فراشها في ثياب النوم، وقد علت وجهها صفرة فاقعة، وكانت دقات قلبها كأنها منبعثة من بئر عميقة، والى جانبها قنينة فارغة من حبوب منومة مما يؤكد بانها قد ابتلعت كل الاقراص التي فيها طلباً للانتحار!

خرج يوسف من الفندق في الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وهو يحاول ان يعثر على طبيب. كانت دمشق نائمة كلها وليس هناك من سيارة. فما كان منه الا ان فك الحصان من عربته وقفز على ظهره، وانطلق به راكضاً في شوارع دمشق الى بيت طبيب يعرفه، فايقظه من نومه، وجاء به الى الفندق ليعكف على معالجة اسمهان طيلة ساعة، الى ان استردت انفاسها، وفتحت عينيها.

وجاءتها النجدة من القاهرة فعلا. فقد وصلتها برقية تنبىء بان امها مريضة، واذن فلابد من سفر اسمهان الى القاهرة كيما تسهر على طفلتها «كاميليا» بعد ان مرضت جدتها التي كانت تعني بها، ولم يشأ الامير حسن ان يمانع في ذلك، فودعها وفي فؤاده حسرة حرى. . اما اسمهان فانها كانت قد صممت ان لا تعود الى الجبل، وان ترغم زوجها الامير حسن على تطليقها باية وسيلة كانت. فلقد قالت لزوجها اثناء توديعه اياها «طلقني!» فما كانت منه، في غمرة الغضب والهياج، الاّ ان قال لها «انت طالق» وصافحها وركب سيارته وانطلق عائدا الى الجبل!

حين عادت اسمهان الى القاهرة لم تقم مع امها، وانما ابت الا ان تحجز لها جناحا في فندق «ميناهاوس»، وهو من اشهر وافخم فنادق مصر في ذلك الوقت، كل ذلك لكي تحس بانها قد تحررت فعلا من «السجن» الذي لم يكن في الواقع سوى بيت الزوجية في الجبل!





الفصل الثاني

غريقة في حمأة الشراب والمخدرات والقمار!



حاول فؤاد الاطرش، واخوه فريد من قبل، بل والام المسكينة كذلك، عبثاً اقناع اسمهان ان تترك فندق ميناهاوس وتعود الى العيش معهم في البيت الذي يسكنون، لقد وقعت في ذلك الفندق فريسة باردة لعصابة من الرجال والنساء، في صفة اصدقاء وصديقات، احاطوا بها احاطة السوار بالمعصم، واحكموا امرهم على ان يوجهوها الى طريق الشر والاثم، كل ذلك في سبيل ان يستغلوا سذاجتها وطيشها في تبذير ماكانت تملكه وما لا تملكه. فلقد اغروها بالافراط في الشرب، وفي تناول المخدرات الاخرى، واخيرا في لعب القمارحتى اذا ما كانت تخسر في اللعب، وهي تخسر دوما، لانها لم تحسن اساليب اللعب وحيله، تعود الى ما تمتلكه من غالي الثياب، ونوادر الاساور والاقراط والخواتم تبيعه بثمن بخس لتسدد به نفقات الشراب والقمار او حتى تسديد حسابها في الفندق!

وكانت تتعاقد دوماً مع بعض متعهدي اقامة الحفلات الغنائية، وتتسلم «عربوناً» عما تعاقدت حوله، فتنفق العربون في لياليها الحمراء، وفي تبذيرها الذي ليس له حدود، فيروح اخواها فريد وفؤاد يسددان ما ترتب في ذمتها من دين، ويعتذران للمتعاقدين معها عما بدا منها من اخلاف لما كانت تعد به.

دعيت ذات مرة للغناء في قصر من قصور العائلة المالكة في مصر، وقد اعدت للفرقة الموسيقية مائدة خاصة في احدى الغرف الجانبية. وبدأ العشاء وتلفت اصحاب الوليمة فلم يجدوا اسمهان معهم، وحين اخذوا يبحثون عنها، وجدوها مع اعضاء الفرقة الموسيقية، وحين طلبوا اليها ان تأتي مع المدعوين، اجابت باصرار «هؤلاء زملائي وهم عندي اهم من المدعوين»!

وفي احدى ... رات قصدت الممول الصناعي الشهير طلعت حرب باشا، وكان يدعوها «ابنتي» واعربت له عن رغبتها في ان تتناول على مائدته، بعض الاكلات الشعبية، وهي تقول له «يا باشا اوحشتني الكبيبة الشامية، و«بامية الطاجن» لي عام لم اذقها، ولا تنس ورق العنب فهلا دعوت فلان باشا وعلان باشا ليكتمل لنا الانس مع الغداء غدا».

ويلبي طلعت باشا رغبتها ويأمر الطهاة بان يتهيأوا للوليمة، ثم يدعو الباشوات واصحاب السعادة الذين حددت اسمهان اسماءهم، وجلس الجميع ينتظرون مجيئها، وبلغت الساعة الثالثة بعد الظهر، واسمهان لم تأت بعد. ودق التلفون في بيت اهلها وكان المجيب اخوها فؤاد، فاذا بطلعت حرب يخاطبها بعصبية «اين المجنونة؟ اين ذهبت، ونحن ما نزال ننتظرها على الغداء؟» وخرج فؤاد لتوه من البيت شبه مخبول يبحث عنها ليجدها لدى صديقة قديمة لها تلعب الورق وتلتهم «الطعمية»؟!

اتصل المخرج احمد بدرخان بفريد الاطرش واتفق معه على انتاج فلم عرف باسم فلم «انتصار الشباب» يشترك فريد واخته اسمهان معه في تمثيله، وما ان درس فريد العرض حتى وافق عليه وشرع على التويلحن الاغاني التي ستغنيها اسمهان معه في ذلك الفلم. وفي اثناء العمل في اعدادالفلم تعلق احمدبدرخان باسمهان وشغف بحبها ايما شغف. واعجبت هي الاخرى به واتفقا على الزواج. وفي ساعة «رحمانية» هادئة افضت اسمهان الى اخيها فؤاد بانها ترغب في الزواج من احمد بدرخان وكان رد فؤاد ان الدرزية لا يمكن ان تتزوج الا درزياً وكفى!

فردت عليه متضايقة تقول «من الافضل لك يا فؤاد ان توافقني على ما عرضت وتدعني استريح.. والا قل لي هل تريد ان تدبر لي زيجة اخرى في الجبل؟»

وتدخل فريد الاطرش في الموضوع وكان يعجب باحمد بدرخان ايما اعجاب، فراح يخاطب اخاه «فؤاد بقوله «ان بدرخان يا فؤاد ابن اصول.. لسنا وحدنا نحن ابناء الاصول. هو من اسرة عريقة من الصعيد ولها تقاليدها، وبدرخان فنان، وسمعته طيبة، وقد ألف العمل معنا ولست احسبه غريباً عنا». اذ ذاك اعلن

فؤاد عن موافقته على زواج اسمهان من احمد بدرخان لكنه لم يحضر حفلة الزواج تمسكا بالتقاليد الدرزية.

★ ★ ★

استهلت اسمهان حياتها مع بدرخان بما ينبغي للحياة الزوجية من وقار وحب واحترام. وقد استطاع بدرخان ان يشد اسمهان الى بيت الزوجية بضع ليال، لكنه لم يستطع ان يستمر بها في هذه الاستقامة اكثر من اسبوعين بعد ان اخذت اسمهان تتلقى الدعوات الكثيرة، وتتوسل الى بدرخان ان يقبل، فكان يوافق على ذلك كيلا «يكسر خاطرها».

لقد كانا يسهران كل ليلة تقريبا ولا يعودان من السهرة الا عند الفجر. كان يبدو عليه بانه تابع وهي المتبوعة، وقد طغت شهرته كزوج لاسمهان، على شهرته كمخرج فنان موهوب، فحز ذلك في نفسه كثيرا، وبدأ يضع الخطط للافلات من هذا القفص الذهبي الكئيب، والانسحاب منه بصفة منتظمة. بدأ اول الامر يعترض على توالي السهر كل ليلة، فلم تقبل اسمهان باعتراضه ذاك، فلم يكن امامه الا ان يسدد رميته الى الهدف مباشرة، فصارح اسمهان بانه لا يستطيع ان يعيش حياتها التي تحياها، وكذلك فانها لا تستطيع ان تمضي باسلوب حياته كما تشاء، وان من الخير لهما ان يفترقا!.

وسرحها بمعروف كما ارادت، وبانت اطياف الحزن على محياها لحظتئذ، لكنها تجلدت، وتشبثت بخيال الحرية الموهوم، وهكذا انفصم الزواج الثاني لاسمهان والذي لم يدم سوى اربعين يوما ليس الا.

وما ان تحررت اسمهان مرة اخرى من قيود الزوجية، حتى انغمرت في دنيا السهر والخمر والميسر تعب منها ما تشاء بلا رقيب وبلا ناصح اومحذر. وجنّ جنون شقيقها فؤاد الذي وافق على زواجها من بدرخان لظنه بان حياتها سوف تستقيم وتستقر، كما ينبغي للحياة الزوجية ان تكون، وحنق فريد، وهو اكثر برودة من فؤاد، واحنى منه على اسمهان، ذلك لان المتاعب من تصرفات اسمهان الشائنة كانت تلاحقه في كل ساعة. فهو الذي يضطر الى ان يسدد ديونها الكثيرة سواء في ذلك ديون الكولانم والسهرات، ام تسديد [illegible] الفنادق، او قوائم الملابس والحلي

والمجوهرات التي كانت تشتريها بافدح الاثمان، ثم لا تلبث حالة افلاسها ان تبيعها باثمان بخسة جدا.

وحاصرها فؤاد ذات مرة في البيت ليقول لها «لقد لطخت اسمنا في الوحل، ولذلك اخيّرك بين امرين لا ثالث لهما: فأما البقاء في البيت واحترامه، واما الخروج منه الى الابد!» ثم عاد يقول «فاذا اخترت غير هذا.. اذا اخترت البقاء وتلطيخ اسمنا في الوحل فليس عندي سوى حل واحد.. سأقتلك!» واذا استدار فؤاد لكي يسمع جوابها، فانها لم تنطق بكلمة واحدة، وانما عمدت الى ملابسها وحوائجها، وشرعت تجمعها ثم قبلت امها التي كانت تبكي والتي خاطبتها برقة وانكسار «عودي يا ابنتي ولا تغيبي عني!»

وعلم فؤاد في اليوم التالي بان اسمهان قد استأجرت لها شقة وشرعت في تأثيثها، فابتلع ما علمه، ولاذ بالصمت، اما فريد فقد قال معلقاً «ربما استراحت هناك.. على ان الراحة المحققة ستكون من نصيبنا!..



الفصل الثالث

في احبولة المخابرات البريطانية!

حين سقطت فرنسا سنة ١٩٤٠ فريسة بيد الجيوش الهتلرية الغازية، اظهرت فئة كبيرة من الفرنسيين استعدادها للتعاون مع قوات الاحتلال الهتلري، وكان على رأس هذه الفئة المارشال «بيتان» الذي عين رئيسا لحكومة تخضع للاشراف الهتلري، اتخذت من مدينة «فيشي» التي اشتهرت بمياهها المعدنية، عاصمة لها، فعرفت تلك الحكومة باسم حكومة فيشي وفي الوقت الذي استطاع فيه «ديغول» ان يهرب مع زمرة كبيرة من الضباط الى بريطانيا ليؤلف في المنفى حكومة «فرنسا الحرة» كانت حكومة فيشي الخاضعة للالمان قد مدت سلطتها الى كل من سوريا ولبنان، فاصبحت هذه السلطة مصدر خطر كبير على بريطانيا التي بقيت لوحدها في ميدان الصراع ضد دول المحور المؤلف من المانيا وايطاليا واليابان.

كان وجود الالمان في سوريا ولبنان تحت شعار قوات حكومة فيشي ينذر بالخطر كل مصالح بريطانيا ومواقعها الستراتيجية في الهند والخليج العربي والشرق الاوسط كله، وعلى الاخص العراق وايران البلدين اللذين ينعمان بالاحتياطي العظيم من مخزون النفط في اراضيهما، ناهيك عن وقوعهما على «طريق الهند» درة التاج البريطاني ومصدر قوته وجبروته في ذلك الوقت.

وحين قامت ثورة ايار الوطنية في العراق سنة ١٩٤١، واصطدم الجيش العراقي بالقوات البريطانية التي كانت تعسكر في قاعدة الحبانية الجوية الشهيرة، تعاظم الخطر على بريطانيا الى درجة خطيرة جدا، بات من المتوقع معها ان ينحدر الالمان، بعد ان احتلوا اليونان وجزيرة كريت في البحر المتوسط، الى سوريا ولبنان وفلسطين ثم يزحفوا منها على العراق وايران، ويتخذوا سبيلهم الى الهند عبر

الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية ذاتها .

وفي غمرة انشغال بريطانيا بامر القضاء على الثورة في العراق ، واعادة احتلال العراق احتلالا عسكريا مباشراً من جديد ، راحت بريطانيا تضع الخطط للوثوب على سوريا ولبنان وانتزاعهما من قوات الحكومة فيشي الخاضعة للالمان ، وسد هذا المنفذ العظيم بوجه الجيوش الضارية التي قد تفكر في الاندفاع الى العراق والخليج والهند .

وما ان استطاعت بريطانيا ان تخمد ثورة العراق حتى اخذت تعد العدة لتلك المغامرة الجديدة ، مغامرة احتلال سوريا ولبنان ، وهنا تفتقت اذهان اساطين المخابرات البريطانية عن تهيئة الوسائل اللازمة لضمان نجاح تلك المغامرة ، وذلك عن طريق التفاهم مع «العناصر» المعادية للغزو الفرنسي في ذينك البلدين ، وعلى رأس تلك العناصر امراء جبل الدروز الذين اشتهروا بحبهم للاستقلال الذاتي وللحفاظ على تقاليدهم القديمة في العيش والسلطة .

كانت اسمهان في مقدمة الاسماء التي تم اختيارها من قبل المخابرات البريطانية لكي تقوم بدور حلقة الاتصال بين بريطانيا وجبل الدروز . وكانت المخابرات البريطانية على اطلاع تام باحوال اسمهان ونزواتها ، وانغماسها في الترف والابهة ، والتبذير . ولذلك راحت تراقب كل تصرف كان يبدر منها ، كيما تستطيع ان تتخذ منه اداة لتسخير اسمهان فيما بعد ، لتنفيذ الخطة التي اعدت للتنفيذ على يدها .

يقول المرحوم محمد التابعي في كتابه «اسمهان تروي قصتها» الذي صدر سنة ١٩٦١ ما يلي : في يوم الاحد ٣ مارس (اذار) كلمتني اسمهان بالتلفون تقول : هل يمكنك ان تستضيفني يومين او ثلاثة؟ قلت : ابدا! ولكن لماذا؟ قالت : ساقص عليك السبب فيما بعد» سألتها «واين انت الآن؟ قالت انها تتكلم من دار حسنين باشا . . وهولا يعرف باني اكلمك الآن» فقلت لها على الرحب والسعة ، وسوف اعد لك حجرة» .

ولقد جاءت اسمهان الى التابعي فعلا ، وشكت اليه بان حياتها مع امها وشقيقها فؤاد ، غدت لا تطاق ، وقالت «لقد عرض علي احمد حسنين ان اقيم في

داره، وان يدعو السيدة (شفيقة نعيم) لتقيم معي، وذلك قطعا لالسنة السوء، لكنني شكرته ورفضت عرضه، ويقول التابعي ان اسمهان حين كانت في داره كانت في حالة خوف من ان يهتدي اخوها فؤاد اليها، وحين انبأها بان سر اختفائها عنده لابد وان ينكشف فماذا تنوي ان تفعل، قالت «ساعود الى جبل الدروز» واقبل قدمي حسن) «زوجها حسن الاطرش» لكي يردني زوجة له، فاذا رفض توسلت اليه ان يبقيني خادمة في داره».

ويمضي التابعي في حديثه فيقول «واخيرا اتفقنا على ان تسافر اسمهان غدا الى الاسكندرية، وان تقيم عند صديقتها «الهام حسين» ريثما تدبر امر سفرها الى بيروت اما بالباخرة، واما بالقطار عن طريق القنطرة «وحيفا». والذي نعتقده ان المخابرات البريطانية التي اتصلت باسمهان، قبل ان تهرب من امها واخيها بمدة غير قصيرة، قد اوضحت لها الخطة المطلوب منها تنفيذها، وذلك بالعودة الى زوجها حسن الاطرش الذي كان ما يزال يحبها، وعن طريقه تتصل ببقية زعماء الدروز وفي مقدمتهم «سلطان باشا الاطرش» لوضع السبل التي تسهل عملية دخول الانكليز الى سوريا.

اما الرسالة التي بعثت بها اسمهان الى التابعي من مدينة القدس في الحادي والعشرين من حزيران ١٩٤١ والتي تشكو فيها ما تحملته من شقاء، فان هذه الرسالة كانت تغطية اريد بها ضرب عصفورين بحجر واحد هما (١) ايهام امها واخويها وجميع اصدقائها بانها ـ كما ذكرت في الرسالة «كانت «بائسة وبائسة جدا . . لا اعلم ماذا افعل، فاني دائما امرأة بدون مستقبل . . فلم اعد اعرف، ولا اعترف ان لي اماً واباً ولي اخوات بعد الذي شفته منهم!»

(٢) مخادعة زوجها حسن الاطرش لان يصدق بانها قد ندمت على هجره، وانها قد عادت الآن لتعيش في كنفه، كيما تضمن ان يبسط حمايته ورعايته عليها، فتصبح في مأمن تام لانجاز المهمة التي كلفتها بها المخابرات البريطانية.

ولقد شاركت السلطات المصرية ذاتها، وبطلب من المخابرات البريطانية، في ارغام اسمهان على القبول بتنفيذ المهمة التي اوكلت اليها، وذلك حين انذرتها ادارة الجوازات المصرية بان المدة المرخص بها في الاقامة في مصر، قد اوشكت

ان تنتهي، وان عليها ان تقصد الجوازات لهذا الغرض، ولكنها كعادتها اهملت ما طلب منها، الى ان وصلها انذار من الجوازات في شهر كانون الاول ١٩٤٠، بان مدة اقامتها في مصر قد انتهت وان عليها ان تغادر الاراضي المصرية في مدة اسبوع.

وكما ذكرنا قبلا فان اسمهان كانت خلال الايام الاخيرة من كانون الاول ١٩٤٠ والايام الاولى من كانون الثاني ١٩٤١ قد تزوجت من المخرج احمد بدرخان، لكي تكتسب الجنسية المصرية بهذا الزواج وتتخلص من الاقامة المؤقتة، لكنها لم تركن الى بدرخان اكثر من اربعين يوما، فمزقت عقد الزواج، وطلقته هي قبل ان يبادر هو بتسريحها.

والذي نعتقده ان المخابرات البريطانية كانت وراء طلاق اسمهان من بدرخان، كيلا تمتنع عن القبول بالمهمة التي انتدبتها لها.

★ ★ ★

امامنا الآن مصدران اساسيان يوضحان بالتفصيل كيفية اتصال المخابرات البريطانية باسمهان، الاول كتاب محمد التابعي، والثاني مذكرات فؤاد الاطرش التي نشرها عن شقيقته اسمهان في خمس عشرة حلقة في مجلة «المصور» المصرية الصادرة خلال اشهر اذار ونيسان وايار وحزيران من سنة ١٩٦٠. يقول التابعي ان اسمهان زارته في داره في الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة الثالث والعشرين من ايار سنة ١٩٤١، وما ان استقرت في مقعدها حتى اخرجت من حقيبتها مصحفها الصغير الذي كانت تحمله دوماً معها، وقالت «اقسم على القرآن الكريم ان لا تبوح لاحد بكلمة واحدة مما ساقصه عليك الى ان تنتهي مهمتي!»، «قلت وانا ابتسم هذه ميلودراما! ايه الحكاية؟ «قالت «اقسم اولاً، قلت: واذا رفضت ان اقسم؟ قالت: في هذه الحالة لن تعرف السبب في سفري، قلت: سفرك فين؟ قالت الى الشام، قلت: متى؟ قالت «يوم الاثنين!»

ويضيف التابعي الى ذلك قوله ان موظف السفارة البريطانية الذي اتصل باسمهان هو «المستر نابيير» نائب مدير قسم الدعاية والنشر في السفارة، وذلك في يوم الاثنين التاسع عشر من ايار ١٩٤١، في حديقة «فندق الكونتننتال» وقد تحدثت اسمهان الى التابعي عن هذا اللقاء فقالت «ونهض مستر نابيير من مقعده، وتقدم

نحوي وحيّاني وقال انه يعرفني جيدا، وان كنت لا اذكره، لانه شغل منصب قنصل لدولته في دمشق سنوات عديدة، وعرف هناك اسرة الطرشان الى آخره، وقال ان المصادفة الطيبة (؟؟) هي التي ساقته ذلك المساء، لانه كان يود ان يقابلني منذ يومين ليحدثني في امر هام فيه نفع لي ولبلادي.

وسألني هل هناك من مانع ان يلقاني على انفراد؟ ولما قلت كلا، ناولني بطاقته وطلب مني ان احدثه غدا، اي الثلاثاء، بالتلفون لنتفق على موعد المقابلة ومكانها. ولم اتردد في الموافقة، فقد كنت في ذلك المساء بعد حديثي معك في التلفون، في حالة نفسية، وطبعا لم يطف بخيالي اي شيء عن العمل الذي عرضه على الانجليز، كل ما هنالك انني احسست ان الرجل «مستر نابيير» يود ان يعرض عليّ امرا ما ماهو؟ لا اعرف ولكنه على كل حال تغيير ما يوشك ان يصيب حياتي، وكنت مستعدة في ذلك المساء لقبول اية مجازفة ما دام فيها شيء من التغيير.

وكلمته بالتلفون في الصباح ولكني لم اجده في مكتبه، ولم اهتم بعدئذٍ بالسؤال عنه طول اليوم. ولكني عدت وتذكرت امره في صباح الاربعاء، وفي هذه المرة وجدته في مكتبه، واقترح هو بان يزورني في المساء في سكني بعمارة «ايموبيليا» فوافقت، وهذا هو السبب في انني لم ازرك يومئذ، كما كنت اتفقت مع سليمان نجيب.

ولقد كان حديث (نابيير) معي ذلك المساء حديثا (على العايم) لم يفصح فيه تماما عما يريد، واكتفى بسؤالي عن بعض افراد الاسرة، وعما اذا كنت لا ازال على صلة ما بزوجي السابق حسن الاطرش!.. وما اذا كنت اود العودة الى جبل الدروز، ولو في زيارة قصيرة الى آخره! وانصرف على ان يتصل مرة اخرى. وفي مساء الخميس زارني ودعاني لمقابلة «مستر سمارت» (السير والترسمارت) في داره بالزمالك يوم الجمعة. ولقد تناولت اليوم الشاي مع مستر سمارت في داره وكان موجود معنا قائد انجليزي اسمه «روبرت بلوم»[1]

واتفق الاثنان معي على ان اسافر بالطائرة الى القدس يوم الاثنين، وسوف اقيم ثلاثة ايام في القدس في فندق «الملك داود» وهناك سيقابلني رجل انجليزي

لم يذكـر اسمـه ، ولكنـه سوف يعطيني التعليمـات . وبعـد ذلـك سوف اذهب الى «عمان» ومن حدود شرقي الاردن ادخل سوريا ، وسوف يدفعون لي جميع نفقاتي ، كمـا انهم سوف يضعـون تحت تصـرفي ، في فلسطين وعمـان ، اربعين الف جنيـه لاوزعها على رؤساء قبائل البادية ، وانا على موعد غدا مع الجنرال «روربرت بلوم» في مسكنه شقة رقم ٥٤ بشارع قصر النيل رقم ٨ .

ويقـول التـابعي «واخيـرا قلت لهـا ساخـرا ـ يعني عايزة تعملي «ماتا هاري» بتاعت الحرب دي؟ ـ قالت ـ لا «ماتا هاري» كانت جاسوسة تعمل للمال حتى ولو تخون بلادها من اجله ، اما انا فاريد ان اخدم بلادي ـ ثم هزت كتفيها بضجر وقالت «وبس قل لي اقعد في مصر اعمل ايه؟ واعيش منين؟ . ولقد سمعت انت عني كلام النـاس بالحق والبـاطـل ، والحبة عملوها قبة ، واجري من محطة الاذاعة لا يكفيني وانا امقت الغناء في الافراح والحفلات العامة» . ثم عادت تسألني «قل لي هل تريد ان ابقى في مصر، وان ارفض عرض الانكليز؟

واخيـرا قلت «سـافـري اذن ولكن ! ! فقـاطعتني قائلة «هلا تزال تنصحني بالعودة الى زوجي الاميـر حسن؟ قلت نعم وهـذا رأيي من قديم . وبعـد لحظة قالت «طبعا حزرت المهمـــة التي عهـد بهـا اليّ الانجليـز؟ قلت «تقـريبـا ولكنني لم افهم كل شيء؟ قالت : ان الحلفـاء على وشـك الزحف على سوريا ولبنان ، ويهمهم بطبيعة الحـال ان يطمئنـوا الى المـوقف الـذي سيقفـه منهم جبل الدروز . فنحن الدروز نستطيـع دائمـا ان نبعث الى ميـدان القتال بثلاثين الف فارس . ان الانكليز يعرفون من تقـاريـر قلم مخـابـراتهم السـريـة ان حسن الاطرش حاكم جبل الدروز لا يزال يحبني ، وعمي سلطان باشا الاطرش ، وعبد الغفار باشا الاطرش يحترمان رأيي . . فهؤلاء الثلاثة سوف لا اجد صعوبة ما في اقناعهم بصواب الانضمام الى صفوف الحلفاء» .

امـا اخـوهـا فؤاد الاطـرش فيـروي قصـة اتصـال اخته اسمهان بالمخابرات البـريطـانيـة على «الـوجـه التـالي : كانت اسمهـان آنـذاك تعيش في شقـة بعمـارة «ايمـوبيليـا» ، ولم يكن يراهـا الا لمـامـا وفي فرص مدبرة مسبقاً . وفي احد المرات

التقت به صديقة لاسمهان فقالت له «يا فؤاد اسمهان تريدك لامر عاجل» فهز كتفيه استخفافا وقال، وما عساه ان يكون الامر العاجل غير ازمة مالية، حجز على اثاث البيت، اوعربون متعهد لم تذهب لحفلته، اولعبت القمار فاستدارت؟ وردت صديقتها تقول: لم تقل لي اسمهان السبب، ولكن صوتها كان ينبىء عن خطورة.

وفي المساء دق جرس التلفون في بيت فؤاد فقالت صديقة اسمهان ثانية لفؤاد، ان اسمهان تريده». وفي الصباح اجاب فؤاد على تلك الصديقة قائلا: اذا كانت اسمهان تريده فلتذهب اليه لانها هي التي تريده.. اوبالاقل لتطلبه هي بنفسها وتقول لماذا تريده!»

وطلبته اسمهان وقالت له في نبرات جديدة على مسمعه «الامر خطير يا فؤاد، وانا منه في موقف عصيب، الامر فيه مصلحة الاسرة كلها فقال مستهينا «اية اسرة؟ فقالت: الشجرة الاصيلة يافؤاد.. وكل الدروز»! لقد ظن بانها كانت تمزح أو تسخر، لكنها استطردت تقول له «الامر يا فؤاد يتعلق بارواح كل الناس في الجبل لهذا اريدك فانني لا استطيع ان اخطوخطوة قبل الرجوع اليك. انت هنا ابي فكيف اتصرف وحدي؟ انتهى عهد الخصام، وجاء ما يجمعنا بل ما يحتم علينا ان نجتمع؟!

احس فؤاد ان الامر جد، وان وراء الاكمة ما وراءها، فاسرع بالذهاب الى شقتها، قالت: جاءني ضابط بريطاني يدعى الجنرال كليتون.. هل سمعت عنه يا فؤاد؟ هوقائد المخابرات البريطانية في الشرق الاوسط، وكان معه السيروالتر سمارت مستشار شؤون الشرق الاوسط في السفارة البريطانية». ارتج فؤاد لدى سماع الاسمين لكنه تظاهر بالانصات اليها، فاضافت تقول «لست ادري ما الذي جاء بهما الي، ولكنهما قالا لي انهما اختاراني لمهمة كبيرة، فهما يعلمان انني اميرة جبل الدروز، وانني مطلقة الامير حسن الاطرش الذي يتمنى عودتي اليه، الامر الذي يجعل له في الجبل كلمة مسموعة ورأيا مطاعا.

ارتاح فؤاد الى ما سمعه، لان عودتها الى الجبل ترقى الى مصاف المعجزات فهل تتحقق المعجزة، وترجع «آمال» الى الجبل؟

لوحدث هذا فلسوف يستريح منها. مضت اسمهان تقول له «انهما يريدان ان احادث زعماء الجبل على امر هام، هو ان لا يتعرضوا لجيوش الحلفاء، اذا بدأت هذه الجيوش احتلالها لسوريا التي تحتلها المانيا النازية[1].

طافت افكار شتى في ذهن فؤاد، واحس بان هناك خطراً يحوم حول اخته، ولابد من تحذيرها منه، فقال متسائلا: وكيف تقنعين زعماء الجبل؟ كيف تصلين اليهم، والحدود مغلقة؟، فاجابت «هم سيدبرون لي كل شيء، جواز سفر مثلا.. وسادخل لانني زوجة الامير حسن. لن يعترض الالمان على هذا، لانهم لن يغضبوا الامير حسن، واذا سئل الامير حسن عني، فحتما سيجيب بانني زوجته.. ام ماذا ترى؟

انهم يريدون مني ان اسجل كل اماكن الدوريات الالمانية والاستحكامات، وقالوا لي ان هذا خير محض لاهلي وعشيرتي، لان الغارات والهجوم ستنصب مباشرة على مواقع الأعداء في بلادنا، فتتجنب المدن والقرى ويلات الحرب. لن اجعل جبل الدروز ساحة للمعركة... لا الالمان ولا البريطانيون يهموننا.. فليتقاتلوا ولكن بعيداً عنا، ولتجر بينهم المذابح في غير ارضنا!»

بدأت على فؤاد مظاهر الاقتناع بما قالته اسمهان، فسألها «ومتى تسافرين؟ فقالت بعد ثلاثة ايام، بل اعني بعد غد، واريد ان ارى فريد وامي.. فالرحلة محفوفة بالموت، والمخاطرة غير مأمونة العواقب، فهل تجيئون غدا في الخامسة؟ واذ ذاك قال فؤاد وهو ينهض للانصراف «حسنا.. موعدنا الخامسة». ذهب الثلاثة حسب الموعد فاستقبلتهم اسمهان ببشاشة، واجزلت القبلات لامها، واذ شارفت الساعة السادسة تهيأوا للانصراف بعد ان تواعدوا معها على تناول الغداء معا في اليوم التالي.

---

(١) انظر تفاصيل تحرك البريطانيين من العراق لاحتلال سوريا ولبنان، وطرد حكومة فيشي منهما، مفصلة في كتاب «ثلاثة ملوك في بغداد» لمؤلفه «جرالد دي غوري» الذي ترجمناه وصدرت طبعته الاولى سنة ١٩٨٣، ويجري الان اخراج طبعة جديدة منقحة منه مع فصل جديد ـ المؤلف

وفي الوقت الذي كان فيه الثلاثة، امها واخواها في اليوم التالي يقفون بباب العمارة ليصعدوا الى شقتها، كانت اسمهان قد وصلت الى مدينة القدس، ونزلت في فندق الملك داود، فكيف حدث هذا كله، واي طريق اتخذته للسفر الى هناك؟ كل هذا يرد عليه محمد التابعي فيقول: «في يوم السبت الرابع والعشرين من ايار، ذهبت اسمهان مبكرة الى دار اللواء سليم زكي باشا مدير الجوازات وسحبت منه جوازها الذي كان محتجزا عنده، وذهبت الى مستر سمارت وتركته عنده، لكي يجري اللازم.

وبعد ان تناولت الغداء مع التابعي، تركته وذهبت الى الجنرال كلايتون حسب موعدها معه ثم عادت الى التابعي في نحو الساعة الرابعة بعد الظهر وقالت له «اعطاني الجنرال الآن ثلثمائة جنيه لكي اسدد منها ديوني واظنها لا تكفي . . ولكنهم سيدفعون لي ساعة اصل القدس مبلغ الف جنيه على الحساب». ولقد حرصت على ان لا تدع احدا من افراد اسرتها او معارفها ان يعرفوا ما اعتزمت عمله، والقصد من سفرها، والوقت الذي سوف تسافر فيه.

في يوم الاحد الخامس والعشرين من ايار كانت اسمهان مدعوة لتناول الغداء في دار السيدة «امينة البارودي» وعادت بعد الظهر الى شقتها في عمارة ايموبيليا الى ان يحين موعد سفر القطار من القاهرة الى القنيطرة. واثناء الانتظار حضر ضابط انكليزي من المخابرات البريطانية، فقدم لها تذكرة السفر والمنام في القطار، حيث سافرا في السادسة من مساء ذلك اليوم بقطار فلسطين، وحتى ذلك الوقت لم يعرف احد بسفرها سوى شقيقها فؤاد الذي قصد شقتها في الوقت الذي تحرك فيه القطار.

ويقول التابعي «واخيرا جاءتني منها برقية مؤرخة في التاسع من شهر يونيه (حزيران) مرسلة من القدس تقول فيها «وصلت القدس قبل يومين، وسابقى فيها بضعة ايام، ثم اسافر ثانية الى الجبل، وكانت سفرتي الى سوريا موفقة جدا، والامير مصمم ان يرجع لي» ويضيف التابعي الى هذا قوله «وفهمت من هذه البرقية انها وفقت الى اقناع عشائر الدروز في سوريا بالتخلي عن حكومة فيشي، والانضمام الى الحلفاء اولا، وان زوجها السابق الامير حسن الاطرش عرض ان

تعود زوجة له لكنها رفضت، وثالثا انها تريد العودة الى مصر.

★ ★ ★

التقت اسمهـان في فنـدق الملك داود في القـدس بعـدد كبيـر من الضبـاط الانكليز الذين احسنوا استقبالهم لها، وابدوا اهتمامهم البالغ بها، ولم يحاول احد منهم ان يستهين بالعمـل الكبيـر الـذي تجـري الاستعـدادات له على قدم وساق. وكـانت الخطـوة الاولى التي ينبغي على اسمهـان ان تقـوم بهـا هي ان تبعث ببـرقيـه الى الامير حسن الاطرش تقول فيها «قابلني في فندق الشرق بدمشق!» وهذه البرقية سوف تمهـد للسؤال من قبـل الفـرنسيين الـذين يحكمون سوريا لحساب الالمان، بقولهم للامير حسن، هل هذه زوجتك؟

ولقـد طرح على الاميـر حسن ذات السؤال، ورأسـه يكـاد ينفجر من هول المفـاجأة، فاجـاب «اجـل (آمـال الاطـرش) زوجتي. وحين سئـل ولماذا تقدم من مصـر، كان رده «بـدأ الخطـر يلوح في سمـاء مصـر، وطائرات المحور تلقي قنابلها هنـاك فتثيـر الـذعـر، ولـذلك آثرت زوجتي الفرار من مصر، لتقيم مع ابنتنا التي في كنفي» وكان رد السلطات الفرنسية قولها «سوف نسمح لها بالدخول ما دامت زوجتك!».

عاد الاميـر حسن الى فنـدق الشرق ينتظر وصول اسمهان لانه لم يكن يعرف من اي طريق سوف تقبـل. احس بالحنين اليهـا.. ان حبهـا لم يمت، وان هذه القاسية قد عادت بقدميها فعسى ان تندمل الجراح، ويعوض القلب ما فات، وراح يحـدث نفسـه «سـوف يلقـاهـا بمـا ينبغي ان القى به ابنة العم، وام البنت، وحبيبة القلب، ثم استلقى على مقعـد يواجـه باب الفنـدق وعينـاه لا تتحـولان عن البـاب!

الفصل الرابع

اسمهان تكاد تقع في المصيدة لو لا !

من المفارقات العجيبة جداً في مغامرة اسمهان ان دول المحور، حاولت في ذات الوقت ان تقتنص هي الاخرى، اسمهان، وان تجندها للتجسس لحسابها. وقد اكتشفت اسمهان هذا الامر، او كادت، حين ركبت قطار فلسطين من القاهرة الى القنيطرة. والحقيقة ان جواسيس المحور كانوا قد نشطوا كثيرا في هذا المجال، بعد ان تأكد لديهم بان اسمهان قد تم تجنيدها لخدمة الانكليز والامريكان، وانهم، اي جواسيس المحور، قد علموا حتى بموعد سفرها الى فلسطين، ولذلك انفذوا لهذا الغرض احد عملائهم الاذكياء، وهو صحفي امريكي ركب من القاهرة ذات القطار الذي ركبته اسمهان الى فلسطين.

ولقد روت اسمهان ان فيما بعد، لمحمد التابعي، قصة هذا الجاسوس الامريكي فقالت «لم يكن القطار الذي تحرك في اليوم الخامس والعشرين من ايار، قد ابتعد كثيرا عن القاهرة، حتى خيل الي بان حوادث الايام الثلاثة الماضية كانت حلماً، وقد افقت منه الآن حسب. عدت الى نفسي فسألتها هل جننت انا؟ والا كيف قبلت هذه المهمة؟ وكيف رضيت ان اورط نفسي في عمل لا خبرة لي فيه؟

ولاول مرة مذ قابلت مستر سمارت ادركت خطورة العمل الذي اقدمته عليه، وجسامة الخطر الذي قد اقع فيه.. بل لقد تمنيت لو استطعت ان اعود الى القاهرة، واعدل عن هذه الرحلة، ولكن كيف؟ هذا مستحيل الآن!

اردت ان اهرب من نفسي ومن افكاري السوداء، فانتقلت الى عربة الاكل في القطار، وجلست وحدي الى احدى الموائد، ولكنني لم ابق وحيدة، فقد اقبل رجل استأذن ان كنت اسمح له بالجلوس في المقعد الخالي امامي، فسمحت له

طبعا. قدم الرجل نفسه الي على انه صحفي امريكي، وان اسمه هو «ف». وما لبث ان اخذ يحدثني عن الحرب، ومجراها، وتطوراتها، وعن الشرق الاوسط، وقال انه يسافر الى لبنان، لانه يتوقع قريبا احداثا هامة، ثم سألني «الستِ من رأيي؟» ووجدت نفسي اقول (نعم)، ولكنني تنبهت في ذات اللحظة، وتذكرت نصائح مستر سمارت ونصائحك انت، واحسست ـ ولا ادري ـ ولعلها اعصابي المرهقة، ان جلوس الرجل معي الى مائدة واحدة، لم يكن مصادفة، بل كان امرا مقصودا، وان حديثه كان يرمي الى غرض.. هو ان يستدرجني الى الحديث.

دارت هذه الخواطر في رأسي في ثانية اوثانيتين! هذا الرجل يتحدث ويسألني، ولكنني ـ وقد تنبهت ـ اعتذرت بالجهل، وعدم احاطتي بتفاصيل سير الحرب، من عدم الاجابة. وبابتسامة، لم اكن كاذبة في اعتذاري، فانت تعرف خيرا من سواك بانني لا اقرأ الصحف، وانني عمري ما اهتممت بتتبع الحرب وسيرها.

وانتهينا من تناول طعام العشاء، ووصلنا الى «القنيطرة» وكان في رأسي سؤال اخافني، وهو: هل الرجل يعرف المهمة التي اسافر من اجلها؟ وهو هل يتبعني خصيصا؟ وهل هو جاسوس؟، ولحساب من يعمل؟ الحساب المحور؟ ام ترى ان الانجليز هم الذين ارسلوه ورائي ليراقبني؟ فقد كنت قرأت ان هناك جواسيس يتجسسون على جواسيس، بينا الكل يعملون لهدف واحد، ويخدمون مصلحة واحدة..

ولكنني اطمأنت قليلا عندما رأيت ان (ف) لم يحاول ان يلازمني في محطة «القنيطرة»، اويجلس معي في قطار فلسطين.. ولكني لما نزلت في الصباح في محطة «اللد» وجدته واقفا على الرصيف وكأنه كان ينتظرني.. وتقدم مني وحياني، وتمنى لي سفرا سعيدا، ثم قال انه سيواصل سفره الى (حيفا)، وفعلا عاد وركب القطار.

لقد كان هذا الصحفي الامريكي المستر (ف) من وكلاء المحور، كما عرفت فيما بعد، ركبت من «اللد» سيارة الى القدس، ونزلت في فندق الملك داود، ولم تمض على وصولي ساعة، حتى زارني رجل انجليزي كان يلبس سترة سلاح الجو البريطاني، واسم الرجل «باص».. ورحب بي، ودعاني لتناول الشاي معه في

نفس ذلك اليوم. وحول مائدة الشاي حدثني طويلا عن عملي، واكد على ضرورة الحذر الشديد في كل خطوة اخطوها، ونصحني بان اسيء الظن في كل واحد. .

ولقد طلب مني «باص» ان استريح اليوم، واستعد للسفر غدا الى «عمان».

وهناك سوف يلقاني من يسهل لي دخول سوريا خلسة من حدود شرقي الاردن. وكان من المهم جدا ـ كما فهمت من (باص) ـ ان اصل الى جبل الدروز، واجتمع بالامير حسن، وزعماء الجبل قبل ان يعرف الفرنسيون بدخولي. . كان (باص) يعرف ان للمحور جواسيس وعيونا في مصر، وكان من المحتمل، او على الاقل من الممكن، ان يكونوا قد عرفوا السبب في سفري، وارسلوا الى سلطات المحور في لبنان وسوريا ينبهونها الى الغرض من زيارتي لجبل الدروز. .

وطلب مني باص ايضا ان اؤكد لزعماء الدروز، بان الحلفاء سوف يرسلون جيشا لطرد حكومة فيشي واعوان المحور، وان جيشهم هذا انما يدخل سوريا ولبنان لتحريرهما من كل سلطة اجنبية، وان اؤكد لهم كذلك ان النصر النهائي في هذه الحرب للحلفاء!!.

وفي اليوم التالي سافرت الى عمان فوصلت اليها بعد الظهر. وانقضى اليوم ولم يتقدم الي احد، ومضى صباح اليوم التالي ولم يتصل بي احد، وبعد الظهر دعيت الى التلفون، وكلمني «المجهول» بلغة فرنسية ركيكة، وفهمت منه انني يجب ان اكون مستعدة بحقائبي بعد نصف ساعة. وفي الموعد المحدد كنت جالسة في ردهة الفندق، وحقائبي القليلة حولي، واقبل خادم يقول ان سيارة تنتظرني امام الفندق. ومشيت الى السيارة، ووضع الخادم حقائبي فيها. .

واخذت مقعدي الى جانب السائق، ولم يكن في السيارة احد سواه، كان السائق ضابطا انجليزيا شابا، ومن صوته عرفت انه هو الذي حدثني بالتلفون، وانطلقت بنا السيارة الى طريق الشام. . واثناء الطريق راح الضابط الشاب يذكر لي اسماء زعماء الدروز، ويسألني بعد كل اسم هل اعرف صاحبه! وطبعا كنت اعرفهم جيدا، فهم اقاربي، وابناء عشيرتي. ثم اخذ يسأل عن الحالة المالية لكل واحد منهم والاجتماعية. . وهل هو رجل طموح ام قنوع؟ وهل هو ممن يمكن الركون اليهم والى كلمتهم؟

وانتقل الضابط بعدها الى افراد زعماء البادية، ورؤساء القبائل الضارية في صحراء سوريا. ولكن معرفتي بهؤلاء كانت قليلة جدا، فلم اكن اعرف منهم سوى اميرين، او ثلاثة، اما هو - اي الضابط - فكان يعرف اسماءهم جميعا، وكان ملما بكل شيء عن كل واحد منهم.

ودام حديثنا في هذا الموضوع اكثر من ساعتين، واستطعنا ان (نغربل) هؤلاء الامراء والزعماء، وان نختار منهم «تسعة» وهم الاكبر مقاما، واوسع نفوذاً في الجبل وفي البادية. كان على رأسهم بالطبع زوجي الامير حسن الاطرش.. واخيرا بدأ الضابط يذكر اسمائهم واحدا بعد واحد، وهو يسألني «ما رأيك؟ هل تظنين انه يقنع بخمسمائة جنيه في الشهر؟» وكنت اقول «كلا! مستحيل! على الاقل الف جنيه. هذا بينما كنت اعلم بان (فلانا) يفرح جدا بخمسمائة جنيه، بل يرضى حتى بمائتين!.

ويتناول الضابط زعيما آخر او رئيس قبيلة وهو يقول «هل تكفيه الف جنيه؟» فاقول انا «كلا! هذا رجل قوي وغني والف جنيه لا تملأ عينيه، فعلى الاقل الفان!» لقد كنت حمارة بل حمارة كبيرة حقا. كان بامكاني ان احتفظ بعشرات الالوف من الجنيهات. فقد كنت انا الواسطة الوحيدة في ايصال هذه المبالغ الى امراء وزعماء البادية.

كان الضابط المذكور يزورني كل شهر مرة في فندق «اوريان» «بدمشق» ويقول «لقد احضرت لك سكائرك من نوع «لكي سترك»، ثم يناولني خرطوشتين ملفوفتين بالورق، ولكن لم تكن في الخرطوشتين سكاير بل رزم من اوراق «البنكنوت»!!

كان الامراء يترددون علي في الفندق، وكنت اقابل كل واحد منهم على انفراد، واناوله المبلغ المخصص له، وكان معظمهم يقنع بل ويفرح بنصف ما كنت اعطيه اياه. ولو انني فعلت ذلك، واحتفظت لنفسي بالفرق لاتريث، ولكنني؟؟ كنت حمارة كبيرة!! وضحكت اسمهان وقالت «عملتها بس مع زوجي حسن الاطرش!» ففي احدى المرات كان عليّ ان اعطيه نصيبه وهو الفان من الجنيهات، ولكنني لم افعل، وتركت دمشق، وسافرت الى بيروت، ولا يزال يعتبر هذا المبلغ

دينا عليّ حتى الآن!!

★★★

ويـذكـر فؤاد الاطـرش في مذكراته ان العسكري الانكليزي (باص) كان هو قائد سلاح الطيران البريطاني في الشرق الاوسط، وكان هو الذي يشرف عن كثب، على العملية التي تنفذها اسمهان، والتي علّق عليها الحلفاء املاً كبيرا في اكتساح سوريا ولبنان من دون مقاومة تذكر. ولقد قدر قادة الحلفاء ان النصر في جبهة الشرق الاوسـط يرفـع الـروح المعنـوية للجنود الذين يقاتلون في اوربا في اسوأ الظروف، سيّمـا وان الـولايـات المتحـدة الامريكية لم تكن قد دخلت الحرب بعد الى جانب الحلفـاء، ولـذلـك كان حديث العـالم عن خطـة هتلر الجهنميـة في غزو الجـزيرة البـريطـانيـة، يتفق ومنطق الحـوادث، وينسجم والسـرعـة التي تحقق بهـا جيـوش المحور انتصاراتها الحاسمة.

لقـد استـوعبت اسمهـان جيـدا، الـدور الذي اوكل اليها، ووعت خطورته، فطلبت لزعمـاء الـدروز مبـالغ طائلة دفع (باص) منها الدفعة الاولى، ووعد بالدفع على التوالي، كلما تقدم العمل الى الهدف المنشود. وحين بدأت رحلتها الى الشام ودعها (باص) في عمان، واسلمها الى سائق سيارتها، وهو ضابط انكليزي متنكر، كمـا وضـع (باص) عدداً من الضباط تحت تصرفها، طالعت وجوههم بدقة، وعرفت محيّـا كل واحـد منهم، كيمـا تقدم اليهم المعلومات التي تحصل عليها، او يحملوا اليها الرسائل، او يساعدوها في التنقل من مكان الى آخر.

وفي طريقهـا الى سوريـا كانت مخـافـر الامن السـوريـة، وهي فرنسية تابعة لسلطـات فيشي، تـوقفها اثناء الطريق، وتسألها «من انت؟» فتجيب «انا زوجة الامير حسن الاطـرش» ثم تقـدم اوراقهـا الى الجنـود الفـرنسيين وتحـدثهم بفرنسية عذبة النبرات، وتصعد في وجوههم نظرات اللامبالاة، واذ كانوا يراجعون اوراقاً امامهم، هتف احدهم «الامير آمال الاطرش؟ جاء اذن بدخولك يوم امس!».

وحين اندست السيارة في شوراع دمشق القت اسمهان نظرة مشحونة بالشوق على بيتهـا القـديم الـذي مرت به السيـارة.. وبعد دقائق هبطت امام فندق الشرق لتجـد ان الاميـر حسن قد هب من مقعـده، وتقدم اليها في خطى حثيثة، وشدّ على

يدهـا، واقبـل النـادل بالشـراب وكان شابا، فداعبها الامير حسن قائلا «ام يحسن ان يحضر الويسكي؟» فاستظرفت دعابته وقالت «بالامس خمر، واليوم امر» ودخلت في الموضوع مباشرة، ثم اخفضت صوتها، وراحت تشرح لحسن مهمتها.

قالت له «سيحـــرر الحلفــاء بلادنـــا، انهم لا يطلبــون منـــا ان ننخـرط في صفوفهم، ونقاتل معهم. ان الذي يطلبونه أمر هين وميسور، هو ان نلتزم الصمت، ولا نحمل سلاحنا فنقاومهم، علينا الآن ان نتصل بشيوخ الجبل، فعندي لهم مال نصلح به امورنا فهل انت مؤيدي ونصيري؟؟

توقف «حسن» هنيهـة عن الاجـابـة كيمـا يفكـر، ثم قال «ولكن المهمـة خطيـرة.. وليست ممـا ينـاسب طبيعـة النسـاء؟» ولكنهـا ردت عليـه بصراحة تقول «ولهـذا جئت اليـك!» وهنـا احس «حسن» بانه قد وقع في «الفخ» فحاول التملص بان قال «وفيها خطر على حياتنا سويا» لكنها ما لبثت ان القمته حجراً بان قالت «لقد خضت المعـارك مع فرنسـا، وكـان الخطـر يجثم في كل خطـوة كنت تخطوها فهل ترددت آنذاك؟».

ولم يلبث حسن ان عاد الى المـوضـوع الـذي كان يشغـل بالـه وهـو «هل ان اسمهان قد ندمت على ما فرط منها في حقه؟ وهل انها راغبة الآن حقا في ان تعود زوجـة مخلصـة له، ام انهـا تريـد من كل هذا ان تنفـذ المهمـة التي كلفتهـا بهـا المخـابـرات البـريطانية، عن طريق الاستعانة به وبزعماء الدروز الآخرين؟ ولذلك قال لهـا «ولكن الا ترين الخطـر ملمـاً اذا ما كتبت في جواز سفـرك، واوراق تنقلك بانك زوجتي مع انك لست زوجتي؟»

وسرعان ما فهمت ما يقصده فارادت ان تقتصر المسافة وتهّون الامر عليه بان قالت «اذن هل يحسن بنا ان نتزوج حقيقة؟» وخفق قلبه لهذه العبارة، واحس بنشوة لا تعـدلها نشـوة اخرى، فاجاب وصوته يكاد يزغرد من شدة الفرح «بل لابد من ان نتزوج حقيقة!» وقالت له متسائلة «ولكن هل يجوز لنا الزواج على شريعة الدروز؟» ثم تطـلعت الى وجـه حسن ساهمـة فاجـاب «سـوف نرى مع رجـال الدين من الاجاويد. قومي استريحي وبعد ساعة سوف نذهب الى «السويداء»

★★★

وتتابع اسمهان حديثها الى التابعي عن مهمتها فتقول «واخيرا اوصلت الى جبل الدروز، وكنت متهيبة جدا من مقابلة العائلة خصوصا الامير حسن بسبب ما نشرته بعض المجلات المصرية عن زواجي «باحمد بدرخان» . وفعلا سألوني عن حكاية زواجي هذه فكذبتها . وقلت انها كذبة مختلقة من اكاذيب مجلات مصر.
ولقد تأثرت كثيرا من حسن استقبال الامير حسن ، واحسست في الحال بانه لا يزال يحبني ، ولعل هذا الحب هو الذي سهل علي مهمتي ، لانني لم اجد صعوبة في اقناعه بصواب الانضمام الى الحلفاء ، والتخلي عن تأييد حكومة فيشي .

ولكنه طلب مني ان اعود زوجة له ، وابدي استعداده لان يطلق في الحال زوجته . . وقد فهمت بانه يجعل عودتي اليه شرطا لنجاحي في مهمتي ، ومع انني استعنت بالكتمان والحذر، الا ان وجودي في الجبل ، وخبر نشاطي السياسي ، قد وصل الى مسامع السلطات الفرنسية ، وعيون المحور في سوريا ولبنان ، ولعل الصحفي الامريكي (ف) هو الذي ابلغ عني!

وعلى كل حال جاءني الامير فاعور ، وهو احد امراء البادية ، يحذرني ويقول لي ان السلطات الفرنسية توشك ان تصدر امراً بالقاء القبض عليّ واعتقالي ، وانه يجب عليّ ان اهرب واغادر سوريا على الفور. وقد تطوع الامير فاعور نفسه بتهريبي من سوريا ، ومرافقتي بنفسه الى حدود فلسطين . وتنكرت في زي عبد من عبيده ، وطليت وجهي ويديَّ بدهان اسود ، ولبست ملابس العبيد ، الذين يعملون في خدمة امراء العرب ، ثم لففت شعر رأسي بالكوفية والعقال وركبت جوادا ، وسرت وراء جواد الامير فاعور!

وكانت رحلة شاقة وطويلة ومتعبة . فقد اضطر الامير فاعور ، ان يسلك في بعض اجزاء الطريق ، طرقاً ودروباً غير مألوفة ، وليست معروفة لدى حرس الحدود .
ولم انس مهمتي الاساسية ، فاجتهدت ان اسجل في ذاكرتي كل ما تقع عليه عيناي من تجمعات للجند ، واوكار المدافع ، وجسور او قناطر انشئت هنا وهناك بين الجبال ، والحصون الصغيرة ومخازن الذخيرة ، وعندما عبرت الحدود اخيرا الى فلسطين ، كنت احس بان وسطي قد «انقطم» بعد ان امضيت على ظهر الجواد ليلة كاملة وبعض يوم ، ثم ودعت الامير فاعور وشكرته .

وفي اليوم التالي كنت في القدس، ودخلت فندق الملك داود وطلبت من الخدم ان يقودوني الى الجناح الذي كنت اقيم فيه . . وبعد ان اغتسلت، وابدلت ثيابي، ارسلت في طلب المستر «باص»، ورويت له كل ما فعلته في سوريا، وما لاحظته طول الطريق وقصة هربي . ولقد سر الرجل جدا بما سمعه، وضمني الى صدره، وهو يقول «مرحى صنعا يا بنيتي !» .

★★★

ونعود الى الامير حسن الاطرش بعد ان كشفت له اسمهان عن مهمتها، ووافقت على العودة اليه زوجة، فنقول ان انشغال الامير حسن الاطرش، باعادة اسمهان زوجة له، حسب «الدين الدرزي» كان اكثر بكثير من اهتمامه بالمحور وبالانكليز وصراعهم على سوريا ولبنان. ففي الوقت الذي انطلقت فيه اسمهان تلتقي بزعماء الدروز ورؤساء قبائل البادية، وتغريهم بمساعدة الانكليزي لطرد حكومة فيشي واسيادها الالمان من سوريا ولبنان، وتقنعهم بالموافقة على مهمتها تلك، وتغريهم بالاموال، كان الامير حسن الاطرش يوالي اجتماعاته بالاجاويد، اي الذين يعرفون اصول الدين الدرزي وقواعده، ويسألهم رأيهم في عودة اسمهان زوجة له، غير ان اكثريتهم اصرت على ان مثل هذه العودة تعتبر حراما اذ لا تحق عودة المطلقة الى مطلقها ابدا، وان التحريم في ذلك امر قاطع لا مناص منه. ولم يشأ حسن ان يعارض «الاجاويد» او يناقشهم في صواب ما يقولون او يعتقدون، وترك الامر موقتا، وانصرف الى معاونة اسمهان في مهمتها العسيرة.

وارسلت اسمهان تقريرا بالنتيجة التي توصلت اليها. وكان تجاوب الانكليز معها سريعا جدا. فما كادت تعود من جولتها في الجبل، الى فندق الشرق في دمشق، حتى وجدت احد الضباط من اعوانها ينتظرها هناك، يحمل لها «خرطوشة السكاير» ويقدمها لها امام الاصدقاء بطريقة لا تثير اي نوع من الشك او الريبة.

ولم تكن سلطات المحور في سوريا ولبنان وحتى في مصر وفلسطين نائمة، او غافلة، فقد تحقق لها ان اسمهان جاسوسة للانكليز، وان عقاب الجاسوسة هو الموت المحقق. كانت اسمهان تجلس الى الامير «فاعور الفاعور» رئيس عشيرة «الفضل» التي تسكن منطقة تمتد من القنيطرة الى «الحولة» حيث تشتبك جبال

سوريا وحدودها مع حدود وجبال فلسطين. وعلى حين غرة اقبل رجل على اسمهان دلت قسمات وجهه على القلق الشديد، فادى التحية لها، وقال لها بصوت بالغ التأثر «هل تسمحين لي بدقيقة واحدة يا اميرة؟»

استأذنت اسمهان من الامير فاعور وانتحت بالرجل ناحية فقال لها هذا على الفور ومن دون مقدمات «يؤسفني ان اقول لك ان قوات المحور قد اصدرت عليك الحكم بالاعدام رميا بالرصاص» واذ نظرت اليه نظرة تكذيب قال مؤكداً «لقد اجتمعت عندهم اشياء كثيرة تبرهن بانك تعملين لحساب اعدائهم. ولقد صدر الحكم منذ ساعة، قال به ضابط من بيروت ولسوف ينفذ الحكم حالما يصل الضابط الى دمشق!!

نظرت اسمهان الى الرجل نظرة استعطاف لكي ينصحها بماذا تفعل، وكيف تهرب! وسألته للتأكد من موقفه «هل انت من اعواني؟» فرد عليها باقتضاب «والا فلماذا احذرك؟» وارادت بسؤال لبق ان تعرف مدى مساعدته لها في هذا المأزق فقالت «وهل عندك تعليمات لخطة الهروب؟ «فاجاب «استعملي اية خطة للهروب، ولا تضيعي الوقت يا سيدتي»، ثم استدار وغادرها منصرفاً.

واذ حكت للامير فاعور ما سمعته، فقد تعهد بنجدتها وتهريبها وحين جنّ الليل، وهدأ الكون، جاءها بدهان اسود وقال لها «اطللي وجهك بهذا الطلاء» وادركت هدفه فقالت «اذن فانا منذ الآن رجل، فضحك وقال انت «رجلي» ومعذرة اذا طلبت اليك ان تسيري خلفي» وتصدى لهما جنود، بعد ان ارتدت ملابس رجل، وجلست الى جانبه في سيارة فاوقفوها، حيث اخرج الامير هويته فعرفوه، ولم يأبهوا بالعبد الاسود الجالس الى جانبه. وفي منطقة خالية من الجنود مكتظة، توقفت السيارة فهبط منها الامير فاعور واسمهان، ثم اطلق صفيراً خافتاً، فانبعث صفير من قلب الاشجار يجاوبه، فقال لها «جاء رجالي فلا خوف علينا!»

برز من بين الاشجار رجلان يقودان جوادين سلماهما الى فاعور واسمهان ثم استقلا السيارة وعادا بها الى دمشق. بدأت الرحلة المضنية المحفوفة بالمخاطر وسط الليل البهيم. حدث ذلك في شهر حزيران ١٩٤١. كان النسيم رقيقاً، وهو السلوى الوحيدة في رحلة كل ما فيها يرعش القلب ويرجف الفرائص. وفجأة صاح

احـد الجنـود من احـد المواقع «من هناك؟ فاجاب الامير فاعور بشجاعة وتبجح «انا الامير فاعور من عشيرة «الفضل» وقدم هويته الى الجنود فقرأوها، ثم اشار الى العبد الاسود وقال «وهذا رجلي !!»

وكـان الجـوادان واني الخطى من شدة الارهـاق والنصب. امـا اسمهان فقد احست بان عودهـا قد تصلب، ولكنهـا قاومت الالم. وحين انبثق الفجر في السـاعة الـرابعـة بعـد منتصف الليل كانا قد قطعا مسيرة عشر ساعات كاملة على الجوادين، وقـد بلغـا منطقـة ينتظـرهمـا فيها جوادان آخران، فابدلا بهما جواديهما المرهقين، ولكي يبدد الامير فاعور مخاوف اسمهان، بادرها على الفور يقول «بعد دقائق تبلغين حدود فلسطين، وهنا تنتهي حدود ارضنا، وليس لنا من سلطان على ما يمتد وراءها!».

الفصل الخامس

اسمهان تدخل جبل الدروز في سيارة مدرعة!



مضت اسمهـان، بعـد ان توقف الاميـر فاعـور عنـد حدود ارضه، قدماً وفي طريقهـا سمعت جلبـة وصهيل خيول، فاذا ببعض الاعراب يقبلون في قافلة صغيرة من وراء احـد التـلال، القـوا اليهـا بالتحية، فغلظت صوتها وردت عليهم تحيتهم، وادارت وجههـا حين لمحت بينهم احـد الـدروز الـذي عرفتـه من قيافته، وواصلت المسيـر فاعتـرضهـا موقـع او موقعان ثم اقبلت على منطقة اسلاك شائكة، فاذا باحد الجنود يهتف بالانكليزية «قف. . لا تتقدم!»

تنفست الصعداء الآن، لقد ادركت انها الآن في حدود فلسطين، وان الخطر قد زال عنهـا. وحين اقبـل الجنـدي عليها اخرج العبد الاسود من طيات ثيابه اوراق اثبات الهوية، فنظر الجندي اليه مندهشاً، واذ ذاك قالت اسمهان للجندي «خذني الى الجنرال «ايفتس» لان لديّ الكثير مما اريد ان ارويه له». وحين سألها الجندي عما اضطرها الى ذلك اجابت «حكموا عليّ بالاعدام لانني مع قومي الدروز نناصر الحلفاء!».

اخذها الجندي الى خيمة فاستراحا وشربت واكلت طعاما محفوظا في علبة، وقـررت ان تتـوجه على الفور الى تل ابيب لتلتقي بالجنرال، «ايفتس» كان الجندي قد ابلغ الجنرال باللاسلكي عن مقدم اسمهان، فامر على الفور بحجز جناح خاص لها في فندق داود، وحين استقلت السيارة للذهاب الى تل ابيب غلبها النوم فنامت، ولم تفق الا عند باب فندق الملك داود!



اقبل الضباط الذين استبطأوا نزولها اليهم ، فابدوا اهتماما واضحا بها . جاءوا لها باحد الاطباء الذي اعطاها عدة ادوية ، وتحلقوا حول سريرها يسألونها عما حدث ، فروت لهم الاحداث بكل دقة ، غير ان اولئك الضباط غابوا عنها يوما كاملا ، فساورها الشك في ذلك ، فسألت واحدا منهم عن الخبر ، فجاءها الجواب في صفة سؤال «هل انت بصحة جيدة؟» فقفزت من فراشها وهي ترد «اجل انني في صحة جيدة» ورد عليها محدثها يقول «استعدي غداً لنزهة قصيرة» فسألت في فضول «الى اين؟» فقال لها «غدا تعرفين !»

وفي الغد عرفت فقد بدأ زحف الحلفاء على سوريا ولبنان في صميم الليل . وعند الفجر تحركت بضع سيارات تحمل المدنيين العاملين في القوات المسلحة ، وكانت اسمهان في احدى هذه السيارات ، حيث اجتازت سيارتها حدود فلسطين الى سوريا[1]

اختارت اسمهان دمشق مقراً لها بدلا من السويداء ، اما الامير حسن الاطرش فقد ركز الآن اهتمامه كله على قضية الزواج ولذلك اتجه ، واسمهان معه ، الى شيخ في دمشق وسأله وكأنه يستغيثه قائلا : «قل لي يا سيدي الشيخ افأن طلقت زوجتي يجوز لي في الشرع ردها؟» فسأله الشيخ بامعان «كم مرة طلقتها؟» فاجاب الامير حسن «طلقة يتيمة !» فقال الشيخ على الفور «ردها حالا فالطلاق ابغض الحلال ، والعود احمد !» وهكذا تزوج حسن واسمهان بفتوى الشيخ الدمشقي ، اما «اجاويد» الجبل فقد ابتلعوا هذا النشوز في المعتقدات الدرزية لان «الاميرة آمال» كانت تغمر الجميع بافضالها!



وما ان اكمل الحلفاء طرد قوات فيشي واسيادهم الالمان من سوريا ولبنان ، وبسطوا سلطانهم التام على البلدين ، حتى تعاظمت منزلة اسمهان ، فغدا منزلها كعبة القصاد من جميع الصنوف ، من الرجال العظام وكبار ضباط الجيش وغيرهم

---

(١) اجتاح الحلفاء اراضي سوريا في اواخر الاسبوع الثاني من شهر حزيران ١٩٤١ ، وقبل ان يهاجم هتلر الاتحاد السوفياتي في الثاني والعشرين من ذلك الشهر ذاته .

من المعجبين، الى اصحاب المصالح، والمتصيدين للمنافع الذين راحوا يقصدونها لتوسيطها لدى رجال الحكم الجديد، في تمشية مصالحهم، وتنفيذ رغباتهم، ومطالبهم المتعددة.

منح الحلفاء، وهم في الحقيقة بريطانيا ورجال فرنسا الحرة، اسمهان في اول الامر، قصرا فخما ببيروت، وفي المنطقة التي لا يسكنها الا كبار ضباط الحلفاء، فضلا عن الجناح الملكي المخصص لها في فندق الملك داود بمدينة القدس، ولذلك غدت واسطة الناس لدى سلطات الاحتلال.

كانت تختلف الى السويداء بين آونة واخرى لترعى شؤون الجبل، ثم لا تلبث ان تعود الى قصرها المنيف في بيروت، كان من بين كبار رجال الحلفاء الذين اسرتهم اسمهان بفتنتها، وعذوبة حديثها، وسحر عينيها الاخاذتين، كل من الجنرال ديغول زعيم فرنسا الحرة، والجنرال «كاترو» مندوبه السامي في بيروت، والجنرال «سبيرز» المندوب السامي البريطاني في بيروت وغيرهم من الكبار.

كانت اسمهان آنذاك تعيش وتتصرف تصرف الاميرة بل الملكة المتوجة المطاعة. فقد طلبت الى الجنرال «كاترو» بان يكون لها حرسها الخاص بها، فوافق على ذلك فورا من دون ادنى نقاش. واذ ذاك قصدت جبل الدروز فانتقت اربعين رجلا من خيرة الرجال وعادت بهم الى بيروت فصنعت لهم زيًّا خاصاً من الملابس: سترة موشاة بالقصب ذات اكمام واسعة، ولون سماوي، وتحتها سراويل سود فضفاضة مما يرتديه الدروز، وحذاء اسود، وفي ايديهم سيوفهم فاذا ما تجولوا حول القصر يكون ذلك على صهوات الجياد.

وكثيرا ما كانت تبعث بالبعض من حرسها هذا الى الجنرال كاترو، يمشون وراءه في الحفلات الرسمية، ويبهرون انظار من يراهم بزيهم المزركش البديع. ويفتشهم احد الضباط، اضافة الى وجود «تشريفاتي» يستقبل الضيوف. ولقد اخذ الجنرال «كاترو بعضا من اولئك الرجال لحراسته بعد ان سمع ببراعتهم في اطلاق الرصاص، وتفوقهم في القتال وجها لوجه. وكان ينقلون الى اسمهان كل ما تريده من انباء واسرار.

ولم تقف اسمهان عند هذا الحد حسب، بل اخذت تتدخل حتى في بعض

امور كبار الضباط من الحلفاء، فقد حدث في دمشق، حين كان جنود الحلفاء يتجولون في شوارعها بعد ان انتهت الاعمال الحربية، انْ طرق احد الجنود الاستراليين، باب بيت عائلة شريفة طلباً لقضاء ليلة حمراء فيه، فما كان من في البيت الا ان انهالوا على ذلك الجندي بالضرب الموجع المبرح، الامر الذي صار في الصباح حديث المدينة المسلمة المتمسكة بالعفة والفضيلة.

هنا خشي اهل المدينة ان يحدث ذلك الجندي رفاقه بما حدث له فيهبوا للانتقام له، ولذلك تساند الدمشقيون فيما بينهم، وهيأوا سلاحهم تأهباً للمعركة. غير ان العقلاء آثروا حقن الدماء بالتي هي احسن فتوجهوا الى شقة اسمهان في فندق الشرق يروون لها ما وقع، فما كان منها الا ان تغضّن وجهها بالغضب، فاسرعت الى التلفون وطلبت الجنرال «ايفتس» وقاله له «حدثت في دمشق كارثة وانت مسؤول عنها» فسألها باهتمام «اية كارثة؟»

فاجابت «انت تعرف ان دمشق بلد اسلامي محافظ، وان «العرض» عند العرب يوازي العمر بل يزيد. وقد طرق جندي استرالي بابا من اعرق بيوتات دمشق يطلب قضاء ليلة حمراء!» ورغم اهتمام الجنرال «ايفتس» بالخبر الا انه اجاب «ولكن امر الاستراليين ليس في يدي» فاستشاطت اسمهان غيظا وصاحت به «انت القائد العام!» فرد عليها يقول «ولكننا في زمن الحرب نعامل من يجيئون من المستعمرات بظرف ورقة، ونترك لهم ان يحكموا انفسهم بانفسهم. اننا نقذف بهم في طلائع قواتنا اثناء القتال فهل نضن عليهم بمثل هذه الحقوق البسيطة؟».

صاحت اسمهان قائلة «وما العمل اذن؟» فرد عليها «ايفتس» «عليك بالقائد الاسترالي فانت خير من يصدر الاوامر اليه. ان لك جمالك فكيف يعصاه؟» وانتهت المكالمة بسرعة، ثم طلبت القائد الاسترالي، ودعته ان يخف الى الفندق. وفي اقل من نصف ساعة كان القائد عندها حدجته بنظرة مرحّبة وحادة في ذات الوقت، وقالت تخاطبه «احب ان اقول لك مباشرة لماذا طلبت حضورك، لقد عملت مع البريطانيين لمصلحة بلدي، وقلت لاهلي وقومي ان البريطانيين مهذبون متمدينون، يحترمون الشعوب الاخرى». توقفت برهة دون ان يعرف القائد سر هذه الديباجة المطولة وراح يتطلع الى عينيها، فاستطردت اسمهان والغضب يسيطر على

نبـرات صوتهـا وقـالت «الشيء الـذي حدث بالامس يقطـع بان ما قلته لاهلي كان تغريراً بهم، ذلك ان ما حدث قد برهن لهم بان البريطانيين ذئاب!

قاطعهـا الجنـرال متـرفقـا وسألها «ولكن ماذا حدث؟» فروت له الحادثة وهي حانقة، وختمتها بقولها «ان الاستراليين احلاف البريطانين، وانت قائدهم. فاذا لـم تفعـل شيئـا فانني انـذرك بان العـاقبة ستكون سيئة!» ولم يشأ بعد ذلك الا ان يقول «سوف امنع جنودي من دخول دمشق، سوف يمكثون في معسكراتهم!»

رمضت عينـا اسمهـان بالانتصـار، وتقـاربت رؤوس الـزعمـاء الـدمشقيين الحاضرين، وتهامسوا فيما بينهم، كل هذا والقائد الاسترالي واقف في مكانه، واذ ذاك قالت له اسمهان «تفضل بالجلوس فانت ضيفي الآن».

★★★

انقضى شهـران منـذ ان غادرا اسمهـان القـاهـرة، من دون ان تسمـع الاسـرة عنهـا اي شيء يذكـر، غيـر ما تنشـره الصحف، وحين اذاعت دخـول الحلفـاء الى سوريـا ولبنـان، وطرد الالمان وانصارهم منهما، ايقن اخوها فؤاد بانها قد وفقت في مهمتهـا. غيـر انـه ما ان قرأ نبأ زواجهـا مجـددا بالاميـر حسن حتى كان يوم عيد له ولاسرته. ولغرض التوثق من الامر، قرر ارسال صديق له الى سوريا ليحمل كتابا منه الى اسمهـان هنـاك وحين لم يستطـع الحصـول على اذن لذلك الصديق، ويدعى «كـامـل حبيب» بالسفـر الى دمشق، قصـد «فؤاد» الجنـرال كلايتـون واسـر اليـه بالموضوع، فوافق الجنرال. وصل «كامل حبيب» دمشق، واتجه الى فندق الشرق التي تنزل فيه «الاميرة»، وقد دهش مما كانت تحيط به نفسها من ابهة وفخفخة، وما تتظاهر به من كبرياء وترف، والرجال بين يديها يروحون ويجيئون.

تحسس كامـل الـرسـالـة في جيبـه ثم قرر ان يسلمهـا الى اسمهـان ففضتها وراحت تقـرأ ساخـرة «عـزيز الامير حسن اشكر لك تضحيتك العظيمة بزواجك مرة اخرى من اختي. لقد كنت دوماً سبّاقاً الى المروءة، فمبروك لكما لتعوضا ما فاتكما من السعـادة. ولكني اوصيـك بآمـال لا تتركها تعود الى القاهرة، ففي القاهرة كل ما **يغريها بالتمرد والعصيان، بل و«دوس الشجرة الاصيلة». . تمنياتي لكما والسلام».**

ولكن اسمهـان ما لبثت ان مزقت الـرسـالـة، فارتـاح كامل حبيب الى ذلك،

وحين جاء الامير حسن كان كل شيء على ما يرام .

★★★

راح كبار القادة والضباط من الانكليز والفرنسيين ، يتنافسون على التقرب من اسمهان ، والتمتع بما كانت تمتاز به من فتنة وجمال . واكثر من هذا ان دارت السعايات والوشايات فيما بينهم نتيجة ذلك . وكان ممن ارتاب في العلاقة التي قامت بين اسمهان والجنرال كاترو، مندوب «ديغول» في سوريا ولبنان ، هو الجنرال سبيرز المندوب السامي البريطاني في بيروت ، كما ذكرنا ذلك فقد كان سبيرز شديد الولع باسمهان ، عظيم الاعجاب بذكائها وجمالها . ولسنا نعلم ان للجنرال سبيرز مذكرات مطبوعة ، والا لأقمنا الدنيا واقعدناها كيما نحصل عليها ، فلعلنا ان نطلع فيها عن امور جديدةفي حياة اسمهان ومغامراتها

على اننا نعتبر هذا التنافس في حب اسمهان بين سبيرز وكاترو هو في الواقع بداية التنافس بين فرنسا وبريطانيا على سوريا ولبنان مجددا ، وهوذات التنافس الذي نشب بين الدولتين خلال الحرب العالمية الاولى ، وادى الى اجراء «هدنة» مؤقتة بينهما بعد ان اقرت بريطانيا وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، وتغاضى الانكليز عن تقويض حكومة فيصل في الشام وطرده هو ورفاقه العراقيين منها ، بالصفة التي يعرفها القراء جيدا .

ذلك ان فرنسا الحرة ، تحت زعامة ديغول كانت تتمسك بعد اندحار المانيا بذات العقلية الاستعمارية الطاغية التي تمسكت بها جميع الحكومات الفرنسية حتى ذلك الوقت ، اي انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فلم تغير فرنسا الحرة نهجها الاستبدادي القديم ضد الشعوب التي خضعت لسيطرتها من قبل سواء في تونس ومراكش والجزائر ، أم في سوريا ولبنان . فهي ، اي فرنسا ديغول ، تعتبران سوريا ولبنان ملكا لها كما كان عليه الامر قبل ان تسقط باريس فريسة بيد الالمان في سنة ١٩٤٠ . وكانت فرنسا ديغول تدرك جيدا ان بريطانيا قد تحملت العبء الاول في طرد قوات فيشي من سوريا ولبنان ، لالكي تسلم هذين البلدين الى «اسرتهما» القديمة فرنسا ، وانما لكي تضع اقدامها هناك وتركزها بقوة بحيث تصبح سوريا

ولبنـــان تدوران في فلك السيـاسيـة البـريطـانيـة ، كمـا هو عليـه الامـر في العـراق وفلسطين، ومصر ودول الخليج العربي وايران والسعودية العربية والهند في ذلك الوقت.

ولهـذا كانت بريطـانيا في تلك الفترة على وجه التحديد، تتساءل: اذا كانت غالبيـة الجيوش التي حررت سوريا ولبنان من الالمان وانصارهم اتباع حكومة فيشي الفـرنسيـة انكليـزيـة ، فلمـاذا تتخلى بريطـانيا نفسها عن سوريا ولبنان لقمة سائغة لفرنسا؟ . وعلى هذا الاساس كان كل من الانكليز والفرنسيين يخططون لاهدافهم في سوريا ولبنان ولا يسقطون من حسابهم ، دور «الاميرة» «الدرزية» واجتذابها الى جانبهم ، وتسخيرها لتنفيذ خططهم واغراضهم .

ولقـد تطـور الامر بين الضباط الانكليز والفرنسيين معا الى درجة ان كل واحد منهم اخذ بدافع الغيرة والحسد ـ يوجه التهم الى الآخر بشأن علاقته مع اسمهان ، الامـر الـذي دعـا القيـادة العسكـريـة العليـا للحلفاء ان تبادر الى التحقيق في تلك التهم ، وان تجـري حركـة تنقـلات واسعـة بين ضباطها الكبار في دمشق وبيروت ، وشاع الامر بين بقية العساكر الاخرى فاقلعوا ـ خوفا ـ عن نصب الشراك حول اسمهان!



الفصل السادس

اسمهان تعود الى الليالي الصاخبة الحمراء وتغرق في متاهات الخمر والميسر

وعادت حليمة الى عادتها القديمة، عادت اسمهان بعد ان توطدت مكانتها لدى الانكليز والفرنسيين معاً، وانهالت عليها الثروة بلا حساب الى اقامة الحفلات الصاخبة، وسهر الليالي الطويلة على موائد الخمرة والقمار، وكأنها نسيت الضيق المادي الذي كان يعصرها عصراً قبل ان تتصل بها المخابرات البريطانية وتشتريها للمهمة التي اوكلت اليها بالتمهيد لدخول القوات الحليفة الى سوريا ولبنان.

كان حبها للحفلات طبع جاءت به من القاهرة، وابت الا ان تجربه في دمشق وبيروت. وكانت اروع الحفلات هو ما كانت تقيمه في قصرها سواء كان هذا القصر في بيروت ام دمشق ام في السويداء. وفي احدى هذه الحفلات بقصرها في السويداء وجهت اسمهان الدعوة الى الجنرال «ديغول» فلباها فرحاً. وما ان هبط القصر حتى راح يسامر اسمهان، ويطوف باثاث البيت ويتأمل اللوحات الشهيرة التي علقت على الجدران، ويلقى النظر عليها، ثم يتحول الى المقصف يتمعن في اناقته وتنظيمه. ثم ينظر من نافذة فيرى منها بيوت الدروز المؤلفة جميعا من طابق واحد، والتي يتوكأ الواحد منها على الاخر في دروب ضيقة متعرجة، ثم يغلق النافذة ويقول «حين اغلق النافذة واتنفس رحيق هذا البيت، احس بانني في باريس!»

ويروح الجنرال البريطاني «سبيرز» هو الاخر، في ذات المناسبة، يتأمل احدى صور اسمهان فيبدو عليه الانبهار، ويقول للجنرال ديغول «سيدي الجنرال هل تسمح لي بان ادير هذه الصورة؟» فيداعبه الجنرال ديغول قائلا «كيف تدير صورة صاحبة المكان، وجوهرة الجبل؟» ليعود الجنرال سبيرز متلمسا له معذرة

عاطفية، اذ يقول «لانني اخاف من هاتين العينين!، ان قلبي يسقط الى قدمي كلما فوجئت بهما تحملقان فيّ!!»

ومع ذلك كان الامير حسن، الذي ينصت الى هذا وامثاله بين القائدين وغيرهما، من المعجبين بالاميرة آمال، يجاري على مضض ما يسمعه، ويراه، كل ذلك على امل ان يتحقق منتهى احلامه في عودة الاميرة الى بيتها، وتستكين اليه، وتعكف على تربية «كاميليا»، وتقنع به زوجا، وبالبيت مثوى ومستقراً لها، وبالثرثرة واللفظ بين بنات العم والخال. كان الامير يحس بالسعادة الحقيقية حين يجد نفسه محاطا بديغول وسبيرز وايفتس وباص وغيرهم من كبار قواد الشرق الاوسط فيستطيع عن طريقهم ان يحل مشاكل الدروز، ويحقق مطاليبهم، لكنه يتجه بتفكيره على الفور الى سلوك اسمهان وتصرفاتها، فيحس بغصة الالم في فمه وهو يتساءل: اما لكل هذا من نهاية؟

★★★

اقامت اسمهان، في احدى الليالي، حفلة، من حفلاتها العامرة التي اعتادت اقامتها، كان ضيف الشرف في حفلتها هذه، الشيخ تاج الدين الحسيني رئيس الجمهورية السورية، حيث ارادت ان تجمعه مع رئيس الجمهورية اللبنانية ووزراءه لكي تتقارب القلوب وتزول الجفوة، بعث الشيخ الحسيني رسالة يعلن فيها بانه قد قبل الدعوة ولسوف يحضر في الموعد المقرر لها. وتوافد المدعون الى قصر اسمهان، واكتظت بهم القاعات، وعلى حين غرة نظرت الى ساعتها وقالت لاخيها فؤاد، الذي كان حاضرا معها، منكرة «لم يصل الشيخ تاج الدين رغم حلول الموعد!» فقال لها فؤاد بكل بساطة «انه يقطع طريقا طويلة فلا بأس ان هو تأخر بضع دقائق!» فصرخت في وجهه بجنون قائلة «وما ذنب هؤلاء المدعوين لان ينتظروا؟؟» فاضاف فؤاد يقول «لا جريمة ولا ذنب. ان تأخير بضع دقائق في امثال هذه الحفلات امر مألوف!»، فردت عليه بجفاء وصلف «ولكن مثل هذا ليس بالامر المألوف في الحفلات التي اقيمها انا في قصري. سوف افتح «البوفيه» ويتحمل الشيخ تاج الدين نتيجة تأخره!!»

اراد فؤاد ان يضيع بعض الوقت في الجدال معها حول التأخير فلربما وصل

الشيخ آنذاك وحلت المشكلة، فقال لها برقة وهدوء «ان الشيخ تاج الدين له مقام الأب، والحاكم الولي، وانتظاره لا يحمل سوى معنى واحد، هو معنى الاحترام الذي تتقاسمه ابوته ومقامه!» ولكنها ردت عليه في عناد تقول «لا عذر عندي لمن يتأخر!» ارادت الدخول الى الداخل كيما تنفذ وعدها ببدء الحفلة، ولكن فؤاد مد يده وتشبث بذراعها وهي تقاومه، واذ كانت تحاول التملص من يده صدحت الموسيقى، وتوقفت عربة انيقة هبط منها رئيس الجمهورية، واذ ذاك افلت فؤاد يده من ذراعها، وتقدما معا نحو الشيخ تاج الدين للقائه والترحيب بمقدمه. واذ تنفس «فؤاد» الصعداء، راحت اسمهان تقول بغرور «هذه اول وآخر مرة اسمح فيها لرؤساء الجمهوريات بان يتأخروا عن مواعيدي!»

★★★

كان الامير حسن الاطرش يتحمل على مضض تصرفات اسمهان المعيبة، ونزواتها الشاذة، كل ذلك في سبيل استرضائها، وامله في ان تفيء الى عقلها فتسلك المسلك الذي يتناسب مع مقام الاسرة، ومقامه هو بين ابناء الشعب السوري، بعد ان اصبح املا كبيراً لهم في الحصول على ما يرغبون الحصول عليه من الاسياد الجدد في البلاد، اضافة الى تعلقه بها، وحبه على ان تظل في عصمته.

غير ان الطبع الذي اعتادته اسمهان منذ ان هربت من الجبل ومن زوجها الامير اول مرة، والليالي الحمراء الصاخبة التي عاشتها في القاهرة سنوات عديدة، كل هذه الامور غدت من القواعد الاصولية لحياتها ولتفكيرها، سيما وانها اعتادت ان لا تسكن مع امها واخويها في بيت واحد، وان تغيب عنهم اسابيع وشهوراً فلا تزورهم، ولا تسأل عنهم الا حينما يصيبها الضيق، ولم يكن هذا الضيق في الواقع سوى تسرب المال من يديها، وغرقها في الديون اما لصاحب الشقة التي تسكن فيها، او للمخازن التي تشتري منها حاجياتها وملابسها بالبيع المؤجل، او محلات تناول الخمر ولعب القمار.

وكلما حاول زوجها الامير حسن، برقة ولطف، ان يذكرها بايام بؤسها في القاهرة، وان يردها الى جادة الصواب، كانت تحنق لذلك وترد عليه بعبارات نابية،

الى ان اشتد الجدل بينهما ذات يوم، وتحول الى خصام وشقاق، لم يستطع الصبر عليها، فالقى عليها كلمة الطلاق وغادرها الى غير رجعة.

ومع ان اسمهان بقيت عدة ايام عاكفة على التظاهر بالعظمة والابهة، وفي اقامة الحفلات، ومواصلة التوسط للناس لدى رجال الحلفاء، الا ان ما حدث بينها وبين زوجها، لم يعد سرا خفيا، حيث تناقلت الالسن ان الامير حسن الاطرش قد طلق زوجته الاميرة «آمال» وانفصل عنها تماما، وان هذا الانفصال لن يكون الا قطيعة نهائية لا رجعة لها بعدها.

وما ان بدأت تحس بان كبار الضباط بدأوا ينقضون عنها بالتدريج ويقللون من زيارتهم لها، حتى احكمت امرها، وغادرت سوريا الى فلسطين، ومن هناك بعثت الى محمد التابعي تستدعيه لان يقدم اليها، فلبى دعوتها وامضى معها خمسة ايام، وبتحريض منها سافرا معا الى تل ابيب، ونزلا في فندق «غات ريمون» ثم عادا الى القدس، ليغادرها التابعي بعد ذلك عائدا الى القاهرة، واثناء وجوده معها في القدس، اوضحت اسمهان له «بان الانكليز بدأوا يمسكون ايديهم عنها».

راح التابعي يفسر اسباب امساك الانكليز ايديهم عنها، فسر عدة اسباب منها (١) الاسراف والتبذير اللذين انغمست فيهما، بعد ان اغدق الانكليز عليها الاموال في اعقاب احتلالهم سوريا ولبنان.

(٢) ان احد الجنرالات الكبار من الانكليز قد وقع في حب اسمهان، وبلغ من هيامه بها وخباله، انه اخذ يترك مقر قيادته في سوريا، ويتعقبها حيثما تكون، وقد عرض عليها ان يتزوجها، وان يطلق زوجته الموجودة في انكلترا، فرفضت ذلك. وحين مرض ذلك الجنرال انتقل الى مصيف «بلودان» فكانت اسمهان تزوره هناك، بين آونة واخرى. واذ كانت معه احدى المرات ناولها رسالة موجهة اليه لتقرأها، فاذا بالرسالة امر من الحكومة البريطانية الى ذلك الجنرال بالعودة حالا الى انكلترا. وقد ابلغها الجنرال بان هذه الرسالة من صنع «باص» ضابط المخابرات البريطاني، الذي كان اول من لقيها في القدس عند قدومها من مصر في اليوم السادس والعشرين من ايار، واعطاها التعليمات اللازمة، والالف جنيه الاول.

(٣) ان التصرفات التي تصرفتها اسمهان قد فضحت لكل الناس، علاقتها

«المخابرات البريطانية»، فلم يعد في مستطاع هذه المخابرات ان تفيد منها، بعد ان انفضح امرها، ولذلك قرر الانكليز التخلي عنها

(٤) كان الصحفي الامريكي (ف) من جواسيس المحور، يتعقب حركات اسمهان في المطاعم والمنتديات، والحفلات «ويتتبع نشاطي باهتمام. وكان في الوقت نفسه يبدي اعجابه بما يسميه اخلاصي لبلادي، ثم يعقب على ذلك قائلا «انه اخلاص لا فائدة منه، لانه مبني على سوء فهم للواقع، وسوء تقدير!» وحين وصل الالمان الى القوقاز كان المستر (ف) يقول «ومتى انتهوا من القوقاز فانهم سوف ينحدرون منه الى ايران والعراق وسوريا ولبنان» وكان كلما يلقاني يسألني بابتسامة المشفق «هل ما زلت تعتقدين بان النصر للحلفاء؟».

وحين كانت اسمهان في بيروت اتصل بها المستر (ف) في الفندق الذي كانت تنزل فيه او طلب ان يلقاها في المساء حول امر هام. . ؟ «ووافقت ولقيته في المساء، وكان صريحا غاية الصراحة. فقد قال بانه صديق لالمانيا. . وانه يؤمن بان النصر للالمان»، ومن ثم وصل الى المغزى المطلوب من الحديث معها، فقال لها «انك استطعت ان تقنعي زعماء الدروز وامراء البادية، بان ينقلوا ولاءهم من حكومة فيشي الى الحلفاء، واذ ثبت لديك الآن بان النصر حتماً لالمانيا، فلا اقل من ان تحاولي اصلاح ما افسدت، وان تنقذي بلدك وعشيرتك قبل فوات الاوان. .

«ان الانكليز، كما يدل عليهم تاريخهم، قوم ناكرون للجميل، اما المانيا فانها تعرف كيف تعامل اصدقاءها بسخاء، وانني سوف المس هذا السخاء اذا زرت «انقرة». وهنا سألتُ (ف) هل هو يقترح عليّ ان اسافر الى تركيا؟ قال: ولم لا؟ ان تركيا بلد محايد، ويمكنك ان تزوري انقرة واسطنبول، ومن السهل عليّ ان ادبر لك مقابلة مع سفير المانيا في «انقرة»[1]، بل انا مستعد لان اصحبك في هذه الزيارة، اذا لزم الامر».

قالت اسمهان «وطلبت منه ان يمهلني يومين، ريثما افكر، واقلّب الامر على وجوهه، وافترقنا على ان يعود بعد يومين ليعرف رأيي النهائي. وقررت ان اقبل دعوة

(١) كان «فون بابن» هو سفير المانيا آنذاك في تركيا - المؤلف

(ف) واسافر الى انقرة، ولم اجد اية صعوبة في الحصول على «فيزة» بزيارة تركيا.

ذهبت بالسيارة الى طرابلس، ومنها ركبت قطار طوروس الى حلب. وغادر القطار فعلا مدينة حلب، واقترب من الحدود التركية السورية ولكنه وقف. ودخل علي ضابط بريطاني وراءه جنديان، وطلب ان اغادر معه القطار.. وغادرت القطار، وكانت هنالك سيارة عسكرية في انتظارنا. وعدنا بالسيارة الى حلب، ومنها الى بيروت. وفي بيروت تركني الضابط امام باب الفندق وهويقول «انت الآن حرة!!».

★★★

كان من طيش اسمهان وبلاهتها ان تصورت بانها حرة لا رقابة عليها سواء من الانكليز ام غيرهم من المتنافسين والمتصارعين على كسب النفوذ في البلاد العربية وغيرها من المستعمرين سواء منهم الانكليز، ام الالمان ام الفرنسيون، والا لما كانت قد خدعت باقوال الصحفي الامريكي «ف» وقبلت بنصيحة لان تزور «انقرة» وبدأت المغامرة لذلك فعلا.

وكما اشرنا قبلا الى الصراع الخفي بين بريطانيا وفرنسا الحرة في ان تبسط كل واحدة منهما نفوذها، دون سواها على سوريا ولبنان. ولذلك شرعت فرنسا منذ اول لحظة دخلت بها الاراضي السورية الى جانب الانكليز، تسعى الى اجتذاب اسمهان الى جانبها، وسلخها عن الانكليز، بل واستخدامها ضدهم فعلا، ولهذا صدرت الاوامر على الفورمن الجنرال ديغول الى مندوبه السامي في دمشق الجنرال كاترو، بان يضع اسمهان تحت رعايته، ولهذا السبب استأجرت لها السلطات الفرنسية، دارا مفروشة في افخم حي من احياء بيروت هو حي «اسر سقي» لتقيم فيها بدلا من الفندق. ولما كان زوجها الامير حسن الاطرش يشغل آنذاك منصب وزير الدفاع في الحكومة السورية، فقد زودها بنفر من الجنود السوريين، يحرسون دارها، ويقفون عند الباب يحيونها حين دخولها اليها وحين خروجها».

غير ان السلطات الفرنسية حرصت في ذات الوقت ان تبقي اسمهان رهينة في بيروت، فلا تسمح لها بمغادرة لبنان الى اي بلد آخر، ولذلك كتبت اسمهان الى التابعي تلح عليه في ان يوافيها الى القدس ليشاركها احتفالها بعيد ميلادها

الـذي يصـادف اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني . وفعلا قبل التابعي الـدعـوة، وتـوجـه ومعـه السيدة امينة البارودي احدى صديقاتها الحميمات، بقطار مصر الى فلسطين في اليوم الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني .

ويقـول التـابعي عن هذا المـوضـوع «وكـان المفـروض ان نجـد «آمـال» قد سبقتـا، وحضـرت قبـل ذلـك من بيروت . ولكننا عرفنا من احد الضباط البريطانيين الذي وصل يومها قادما من بيروت، ان زوجها الامير حسن الاطرش قد طلب، قبل سفـره الى مصـر، من السلطات صاحبة الشأن ان «لا تسمح لزوجته الاميرة بمغادرة البلاد اثناء غيابه في مصر»

. . وكـان ممـا فعله الاميـر حسن الاطـرش، اثناء وجوده في مصر، ان استرد ابنته «كاميليا» من مصر وعاد بها الى سوريا .

ولقد احتالت اسمهان على ان تلتقي بالتابعي وامينة البارودي في «تل ابيب» بدلا من القـدس . وحين سألهـا التـابعي «لمـاذا اختـرت تل ابيب؟ اجـابت «سوف يعرف الامير حسن في بيروت بانني سافرت الى فلسطين، ولسوف يغضب، وربما لحق بي لكي يعيدني الى جبل الدروز»!

الفصل السابع

احمد سالم لم يطلق الرصاص على اسمهان!

كانت اسمهان قد تعرفت الى احمد سالم منذ ان التقت به في ستوديو مصر، حين بدأت المفاوضات معها ومع اخيها فريد الاطرش، لانتاج فلم «انتصار الشباب» اول فلم سينمائي ظهرت اسمهان فيه. وكانت تعجبها من احمد سالم رقته المتناهية، وسعة صدره للاستماع الى من يحدثه. وكانت اسمهان على الدوام في حاجة الى من يستمع اليها، كيما تفرغ الى المنصت ما في فؤادها من احزان، ولتخفف من اثقال الهموم التي تنوء تحت وطأتها.

وبدأ جمال اسمهان وسحرها الآسر، يشد احمد سالم شدا قوياً لا سبيل الى الخلاص منه. وقد حاول ان يختبر مدى سيطرة جمالها وحبه لها على فؤاده، فتخلف ذات مرة على مرعد لها معه، لكنه لم يستطع ان يقاوم لاكثر من دقائق ثم طار اليها مسرعا والشوق يكاد يحرقه. وبسبب الفراغ الذي كان يعيش في فؤادها آنذاك، وجدت اسمهان في احمد سالم من يملأ ذلك الفراغ، او هكذا خيّل اليها في اول الامر، فلماذا تصده عنها اذن، وليس في قلبها نزيل، ولماذا لا يكون هذا الشاب الوسيم الانيق هو ذلك النزيل!

لم تكن اسمهان قد اختبرت مشاعرها تجاهه، حين التقى بها ذات مرة فامسك بيدها بين يديه برقة وحنان وقال لها مباغتا «اسمهان؟ هل تتزوجينني؟» كان ذلك في صالة فندق الملك داود بالقدس، والناس من حولها يروحون ويغدون. وخوفاً من تطفل احد الفضولين، مما قد يسبب وجوده تأخر جواب اسمهان، فعصر احمد سالم يدها بين يديه عصرا وهو يقول «هل فكرت بي» ولم تتباطأ في الرد فاجابت تقول «فكرت ووافقت»!

تلك هي رواية فؤاد الاطرش، ولكن للحكاية بداياتها المثيرة.

★★★

تعاظم حنين اسمهان الى مصر، والى مباهجها، والليالي الحمراء التي اعتادتها فيها من دون رقيب او عذول. وفي الوقت ذاته ضاقت ذرعا بقيود الزوجية وما تفرضه من واجبات، ومضايقات، تكون مناقضة عادة، لحياة التبذل، واطراح اللهو، ونهب الملذات، وعلى الاخص بعد ان حجرت في دار زوجها الامير حسن في السويداء، وسدت امامها ابواب الانطلاق والانعتاق!

ولذلك كانت تخترع او هي الاسباب، واتفه التعلّات للسفر الى بيروت تارة، والى القدس تارة اخرى، كل ذلك كي تخفف من القيود التي تكبلها في دار الزوجية، واخيرا نجحت في اقناع زوجها «حسن» لان يعود معها الى مصر، بعد ان حصلت على جواز سفر دبلوماسي لان زوجها كان محافظاً لجبل الدروز.

ولقد طابت لها الاقامة في مصر طبعا، وسعدت بها حقا. غير ان الاقامة كانت - يا ويلاه! قصيرة، اجبرت بعدها على العودة مع زوجها الى سوريا. ولم تلبث ان خططت بعد ذلك، لزيارة اخرى الى مصر مع زوجها ايضا، ونجحت المحاولة. وما ان وطأت ارض مصر حتى اخذت تلح على زوجها بان يطلقها. وحين رفض ما ارادته اقدمت على الانتحار بان التهمت كمية كبيرة من اقراص «الاسبرين» وخوفاً من الفضيحة والشنار، لم يكن امام زوجها الا ان يطلقها، ويعود بمفرده الى سوريا، كما سبق لنا ان اشرنا الى ذلك في فصل سابق.

لم تلبث ادارة الجوازات في مصر ان وجدت، وبايعاز من الانكليز كما نعتقد، في هذا الطلاق اداة تهديد ضد اسمهان، ذلك لانها بطلاقها من زوجها، تكون قد فقدت جوازها الدبلوماسي، ولابد لها من الحصول على اقامة ان هي ارادت ان تمكث في مصر بعد ان طلقها زوجها وغادر مصر. وعلى هذا سارعت ادارة الجوازات المصرية الى ابلاغ اسمهان بانتهاء مدة اقامتها وباخراجها من مصر.

لم يكن امامها من مفر سوى ان تعود الى القدس، لانها كانت تعرف جيدا، انها لا تستطيع ان تغامر بالعودة الى سوريا لان زوجها الامير حسن الاطرش حاقد

عليها، وان في مقدوره ان يسخر أياً من رجاله بتصويب رصاصة طائشة نحوها وقتلها في الحال.

كانت تعيش في القدس في خوف دائم، واكتئاب بالغ لا مجال الى تبديده، سيما وقد ضاقت بها اليد، بعد ان امسك الانكليز وحتى الفرنسيون ايديهم عنها. كان الخوف والشقاء يرينان على صدرها، وكانت تضرب اخماسا باسداس للعثور على وسيلة لتبديد ذينك الخوف والشقاء والفقرمعا. ولكن!! وعلى حين غرة جاءها الفرج، بعد ان نفد ما لديها من مال، ولم يعد لديها منه شيء، الامر الذي اضطر ادارة فندق الملك داود في القدس. الى ان تحجز صناديق ثيابها لقاء ما في ذمتها من نفقات وديون، كما اضطرت الى ان تبيع ما لديها من حلي قليلة، وان تقترض من هذا وذاك!

كان مفتاح الفرج قد وقع بيدها في تلك الايام مصادفة ومن دون انتظار او توقع. فقد حدث في هذا الوقت ان زار «اسكندر الوهابي» من كبار موظفي وزارة الخارجية المصرية مدينة القدس، وما ان رأى اسمهان حتى هام في حبها، واصابه الخبال بسحرها، وروعة صوتها، وعلمت اسمهان على الفور وقعها في فؤاده، فالقت بشباكها اليه، ورجته في ان يتوسط لها لدى السلطات المصرية بالعودة الى مصر، لكي تستأنف نشاطها في عالم الفن والغناء.

وما ان عاد الوهابي الى القاهرة حتى تحدث الى «حسين سعيد، خال الملكة فريدة زوجة فاروق عن اسمهان. ولما كان حسين سعيد هذا يدير «ستوديو مصر للسينما» فقد سارع بالسفر الى القدس، وقابل اسمهان، ووقع معها عقدا للعمل في الافلام التي سوف تنتجها «شركة مصر للسينما والتمثيل». وقد نص في العقد على ان يكون اجر اسمهان ثلاثة عشر الف جنيه دفع اليها مقدما مبلغ سبعة الاف جنيه مباشرة، سددت منها ديونها، واستعادت مرحها ولياليها الصاخبة. وراحت تنتظر تأشيرة الدخول الى مصر وهي على احر من الجمر.

ما ان عاد حسين سعيد الى القاهرة حتى راح يبذل مساعيه الحميدة للحصول على اذن يسمح لاسمهان بالعودة الى مصر. وقد توسط حسين سعيد في ذلك حتى لدى حرم مصطفى النحاس رئيس الوزراء في ذلك الوقت. وفي هذه الفترة بالذات

هبط عليها في القدس المخرج احمد سالم والراقصة المشهورة «تحية كاريوكا» وهي من اللواتي استخدمهن الانكليز للتجسس اثناء الحرب العالمية الثانية وعلى الاخص قبل معركة «العلمين» الشهيرة وما بعدها. وحين غادرت كاريوكا القدس الى بيروت وحلب لاحياء بعض حفلات الرقص التي تعاقدت عليها، وعادت بعد ذلك الى القدس، وجدت ان احمد سالم كان قد تزوج اسمهان بعقد شرعي صحيح، وعن طريق هذا الزواج، وما صاحبه من وساطات، عادت اسمهان الى مصر!

كانت «ولادة» موافقة الحكومة المصرية على دخول اسمهان الى مصر، ولادة معسرة جدا، وكان «مخاض» تلك الموافقة شديدا تماما. فلقد كتل كل من اخويها فؤاد وفريد، وحسين سعيد، واحمد سالم ومحمد التابعي وسواهم من معارفها واصدقائها كل ما لديهم من جهد لاقناع الحكومة بمنحها تأشيرة الدخول الى مصر.

كان رأي الحكومة المصرية يميل الى عدم السماح، ولعل ذلك كان بتحريض من الانكليز، اوبعد ان انفضح امر اسمهان بانها جاسوسة، وجاسوسة لاكثر من جهة واحدة. وفضلا عن ذلك فقد تكشف لدى وزارة الداخلية ان احدى صديقات اسمهان وهي مغنية ايضا كانت في الاصل تعمل لحساب الانكليز، وانها هي التي اغرت اسمهان بهذا العمل.

وحين ذهب اخوها فؤاد الى وزارة الداخلية المصرية، وقدم كل ما يثبت زواجها من احمد سالم، قالت وزارة الداخلية ان هذا يكفينا دليلا على الزواج وعلى حق اسمهان في الدخول الى مصر، ولكن طلاقها من الامير حسن الاطرش لم يثبت بصفة رسمية» ورد فؤاد على ذلك بان قال «لكننا نحن دروز وليس عندنا اوراق طلاق» فاجابت وزارة الداخلية «ان عرفكم لا يسري علينا، والقانون قانون!!».

واذا كانت اسمهان قد تزوجت، ولكن من دون دليل لديها على طلاقها من زوجها الاول، فان من واجب سلطات الامن ان تنظر الى مثل هذا الامر بعين الشك والارتياب، وان تفسره بانه تحايل يقصد به الدخول الى مصر، من باب ظاهرة بريء وباطنه خبيث! وشارك الانكليز سلطات الامن المصرية، فاخذوا يضيقون على اسمهان الخناق، وانتقلوا من دور المداراة في التعامل الى مرحلة الصراحة

الجارحة، فشرعوا يقولون لها بان بقاءها في مصر امر غير مرغوب فيه، وان لها ان ترحل، ثم شرعوا يوجهون اليها الرسائل والبيانات، ويحددون لها الموعد الذي ينبغي لها ان تغادر فيه، فتروح تتضرع اليهم وتتوسل بهم، لكي يمددوا الاجل الذي حددوه، ثم تقدم اليهم البرقيات التي كانت تردها من القاهرة.

وفي هذه الفترة الحرجة جدا من حياة اسمهان في القدس، كانت تطرق كل باب، وتستنجد بكل ما عرفته من الانكليز والفرنسيين، وتستغيث ولا امل لها في الاستغاثة، واخذت الحلقة تضيق من حولها. وصنع الوسطاء المستحيل، حتى استطاعوا ان يحملوا السلطات المصرية على تبرئة ساحتها، وحينذاك صدرت لها تأشيرة الدخول الى مصر من دائرة الجوازات، بعد ان ذاقت ويل الانتظار، ومذلة الاستنجاد والرجاء.

وحين استقلت القطار في طريقها الى القاهرة كانت اسمهان تحيا في خليط من الافكار المختلطة المبلبلة. ترى هل يسمح لها احمد سالم في ان تحيا الحياة التي اعتادتها دوماً، سهر، وميسر، وملذات؟ وهل سوف يعترض على ذلك، بعد ان يسل شوقه منها، مثلما فعل احمد بدرخان من قبله، فتحدث القطيعة الفاصلة هذه المرة ايضا؟

وفي القاهرة استقبلها جميع الاصدقاء والمعجبون من كل الصنوف. فقد اسرع احمد سالم فاحتواها بين ذراعيه، والحب العارم يلوح في عينيه وراح يقبلها ويغمرها باشواقه اللاهفة، ثم اخذها الى بيته في منطقة الهرم، وهو عبارة عن «فيلا» صغيرة ابدع ذوق فنان في هندستها وزخرفتها بكل اتقان.

كان الشغل الشاغل لاسمهان منذ ان وطأت اقدامها القاهرة، ان تسارع في تنفيذ العقد الذي وقعته مع ستوديو مصر، وان ترد الجميل الى حسين سعيد الذي بذل المستحيل ليحقق حلمها في العودة الى مصر. واخذت تلتقي باخيها فريد كثيرا لكي يعد لها الحان الاغنيات التي سوف تغنيها في فلمها الجديد. وكانت الاسرة كلها في سرور شامل لدى عودتها الى القاهرة، امها واخواها فريد وفؤاد والصغيرة الحلوة ابنتها كاميليا ايضا.

وشرعت الصحف تشير الى اسمهان من جديد، ليس الى طلاقها مجددا من زوجها الامير حسن الاطرش، او الى مضايقة الانكليز لها، ولا الى تعنت السلطات المصرية في السماح لها بالدخول الى مصر بعد ان تزوجت من احمد سالم، ليس الى هذا كله، وانما كانت الصحف تشير الى عودة اسمهان لتبدأ فلمها الجديد «غرام وانتقام» مع شيخ الممثلين في مصر والبلاد العربية قاطبة يوسف وهبي.

ومضى العلم في الفلم حثيثا، واخذ احمد سالم يرتب خطة الغد في ذهنه، ويخطط لها مسبقا، ولما سوف تفعله اسمهان بعد الانتهاء من فلم «غرام وانتقام» لسوف يقدم احمد سالم في المستقبل على ان ينتج افلاماً لحسابه هو، وهو مطمئن أن كل فلم ينتجه تكون اسمهان بطلته، سوف يحقق الشهرة والثراء بلا حساب. واستفسر من شركة ستوديو مصر عن المبلغ الذي تعاقدت به مع اسمهان، والقسط المعجل الذي دفعته اليها حين كانت في القدس.

واخذ احمد سالم يخرج باسمهان الى المجتمعات، ولكنه كان يتحرج ويتحفظ في ان يسمح لها بحرية الخروج بمفردها. وكانت تغتاظ لهذا الامر، وهي الذي ظنته واسع الافق بعيداً عن الشكوك والظنون. كانت تريد ان تنطلق في ذات الطريق الذي الفته قبلا، ان تعود الى سهراتها، وان اي قيد قد يقيد حريتها، سوف يكون مصيره التحطيم لا محالة. وبمرور الايام ايقنت اسمهان ان ما بينها وبين احمد سالم ليس الحب، وانما المصلحة، وهي تأنف بل تنفر ان تكون المصلحة هي الوثاق الذي يشدها الى رجل تزوجته، وتحمل اسمه وتقاسمه الفراش!

والحقيقة ان المصلحة في زواج اسمهان من احمد سالم، كانت واضحة جلياً، بل كانت هي الغاية القصوى من الزواج، فلقد تزوجته لتعود الى القاهرة من دون ادنى عقبات من السلطات المصرية، لانها غدت تحمل الجنسية المصرية بمجرد زواجها. وكانت مصلحة احمد سالم تكمن في ان يجعلها بطلة الافلام التي يعتزم ان ينتجها، فيحصل من وراء ذلك على الشهرة والمال. فالمصلحتان لدى اسمهان واحمد سالم تكاد ان تكونا متطابقتين تماما!

ارادت اسمهان ذات ليلة ان تخرج لوحدها، فرفض احمد سالم الاذن لها بذلك. كانت معها صديقتها «ماري قلادة» وقد لمحت في عيني احمد سالم شراً

مستطيراً وهو يرفض . وبطبع الدرزي العنيد ابت اسمهان ان تستسلم للهزيمة، فمضت ترتدي ملابسها وكأنها لم تسمع حرفاً مما فاه احمد سالم . ولم يلبث ان دلف احمد سالم الى حجرته ليخرج منها بعد دقيقة واحدة غاضباً مهتاجاً، وهو يصوب مسدسه الى صدرها قائلا «اسمعي لن تخرجي من هنا الا جثة هامدة!» فردت عليه باستخفاف «الخروج جثة هامدة خير من البقاء!»

وحين مضت لارتداء ثياب السهرة في حجرتها، انسلت ماري قلادة من البيت وهرولت مسرعة الى مركز شرطة الجيزة تستغيث وتنذر بان جريمة على وشك ان تقع! .

اما اسمهان فقد ركبت رأسها وابت الا ان تخرج، واخذت تتزين امام المرآة، واحمد سالم من خلفها مصوبا مسدسه نحوها وكانت المرآة تعكس صورته لها، ومع ذلك فانها لم ترتج، ولم تخف او تتراجع! .

وعلى حين غرة اندفعت نحو التلفون تطلب نجدة، فاندفع احمد سالم بدوره الى التلفون وقطعه، ثم امسك بذراعها بقوة، ولواها بعنف، والقى بها على الفراش وهي تصرخ، ثم اخذ يلف الحبل حول بدنها، ويكبل به يديها، فراحت تقاومه بكل ما لديها من قوة، الى ان تخاذلت في النهاية وتركته يكمل وثاقها وهي تنهال عليه بالشتائم!!

سمع احمد سالم آنذاك طرقا على الباب فنظر من النافذة، ورأى جنودا وضباطا، فهتف بم من دون ادنى اهتمام صائحا، الزموا اماكنكم، لان اي تدخل منكم سوف ينتهي بقتل اسمهان، واستدار الى اسمهان وقال لها حانقا صديقتك ماري هي التي استدعت الشرطة لنجدتك. ولو كانت هنا لاوثقتها معك وقتلتكما معا.

كان جادا تماما فيما قاله. ورأت اسمهان ان الموت يطل من فوهة مسدسه فارتاعت، رغم ان هذه المرة ليست هي الاولى التي يطرق الموت فيها بابها. مضت حوالي نصف ساعة واسمهان موثقة بوثاقها، واحمد سالم يصوب مسدسه نحوها، وينتظر منها كلمة العدول عن الخروج ولكنها كانت تأبى ذلك. اصاخ السمع الى الجنود في الخارج فاحس بان حركتهم قد سكنت. تلك اذن هي دلالة الخوف من

التدخل كيلا تسوء العاقبة. واذ خيل اليه بانه اوقف الشرطة وضابطهم عند حدهم، حتى نظر الى اسمهان وقال لها «حتى ولا الشرطة تستطيع ان تنقذك من يدي؟..
ولكنها استخفت به قائلة «ولكنك تحقق النصر على امرأة!»

لقد عرف بانها كانت تستفز رجولته فضحك مقهقها. اذ ذاك سمع لغطا على الباب فقام الى النافذة يستبين الخبر. وسمعته يقول للطارق الذي تحدث اليه «اجل انني اعرفك!» كان الشخص الذي طرق الباب هو اللواء محمد ابراهيم امام رئيس القسم الخاص في وزارة الداخلية، ممن شهد القوم له بالبراعة في حل العسير من الامور. خاطبه احمد سالم من وراء الباب «هذا خلاف بيني وبين زوجتي. انها تريد الخروج ولست اريده انا، فما هو شأنكم في هذا الموضوع؟» «فرد عليه اللواء محمد ابراهيم «ان شأننا هو شأن الاصدقاء الذين يتدخلون بينكما، لتصفية موقف قد ينتهي بكارثة تورثكما الندم طيلة العمر. انت على حق ويلزم ان يكون لديك شاهد! دعني ادخل، وسترى بانني صادق فيما اقول!».

لم يجب احمد سالم بشيء ما، في حين شرع اللواء محمد ابراهيم يقلب جيوبه، وسترته، وهو يخاطب احمد قائلا «انظر صدقني انني لا احمل سلاحا ولسوف انسحب من الموقف وقتما تريد!» فتح احمد الباب والمسدس في يده ليدخل اللواء محمد فيغدو اسيرا لديه مثل اسمهان. غير ان احمد استشاط غضباً حين سمع وقع اقدام من خلفه ورأى ان رجال الشرطة قد اقتحموا «الفيلا» واذ ذاك نظر الى اللواء محمد ابراهيم نظرة عتاب ثم دخل به الغرفة التي وجد اسمهان فيها.

احست اسمهان بانها قد كسبت نصف المعركة، وايقنت بان احمد سالم لن يقدم على اطلاق الرصاص عليها امام هذا الحشد من الرجال. وبدأت المشاحنة بين احمد واسمهان، وراح اللواء محمد ابراهيم ينصت بتيقظ. كانت اسمهان تتهم احمد بالابتزاز، ابتزاز مالها، وكان هو من جانبه يرميها بالنشوز والانفلات. وطالت المشاحنات بين الاثنين وامتدت زهاء ساعتين، واسمهان ما تزال مقيدة بوثاقها، والمسدس في يد احمد، واللواء محمد ابراهيم قد خالطه خوف حقيقي بعد كل ما سمعه من عناد اسمهان وتصلب احمد سالم في موقفه.

واذ تجمد الموقف عند هذا الحد، اغتاظ احمد سالم لذلك، ودس

المسدس الى جنب اسمهان بعد ان دفع الملاءة التي تغطت بها، كانت يده مغطاة هي الاخرى بالملاءة، وقد خيل الى اسمهان بانه جاد في امره، وانه انما دس المسدس الى جنبها لكي يطلق النار منه عليها، فندت منها صرخة حادة، ما كان امام اللواء محمد ابراهيم ازاءها الا ان يقفز من مكانه، ويلقى بنفسه على احمد سالم، وعلى يده المغطاة لكي يشلها. اطبق اللواء بيده على المسدس بكل قوة لكي ينتزعه من يد احمد، لكن جنون احمد ثار بقوة في هذه اللحظة فاطلق الرصاص من دون وعي في كل مكان.

صرخ اللواء في اسمهان بان تفلت وتهرب وهي مقيدة ففعلت ذلك من شدة الخوف. حاول احمد ان يصوب الرصاص الى اسمهان وهي تخرج لكن اللواء استمات وهو يمسك يد احمد بقوة، فانحرفت الرصاصات التي انطلقت نحوهما، فاصابت واحدة منها اللواء محمد ابراهيم، بينما اصابت رصاصة اخرى احمد سالم نفسه، اذ ذاك تخاذلت يد احمد فامسك اللواء محمد ابراهيم بالمسدس وهو ما يزال في يد احمد سالم. وجه الشرطة بنادقهم الى احمد ليجهزوا عليه ولكن اللواء نهرهم بقوة وامرهم ان يلتزما بالصمت، ثم جرى كيما يطمئن الى ان اسمهان لم تصب بسوء.

اقبلت سيارة اسعاف نقلت اللواء محمد ابراهيم امام، واحمد سالم الى المستشفى، في حين اسمهان تغمر اللواء بمبادرات الشكر والعرفان لنجدته اياها، ولما تعرض له من سوء نتيجة ذلك!



الفصل الثامن

عبدالله فلبى يريد الزواج من اسمهان!



كانت تلك الليلة الحافلة بالرعب والدهشة في ڤيلا احمد سالم ليلة ليلاء كما يقولون فلم يحدث مثلها قط في حياة اسمهان، المتميزة بالمفاجآت والمغامرات. ليلة تقيد فيها اسمهان بالحبال، وتهدد باطلاق الرصاص عليها ان هي خرجت الى احدى سهراتها من دون اذن زوجها؟ ذلك حادث لم يقع لها قبلا حتى مع زوجها المحافظ المتعصب ابن عمها الامير حسن الاطرش. فما بال احمد سالم، وهو الذي قضى زهرة شبابه بين الفنانات والمغنيات والممثلات، والف حياة التنقل بلا حدود او قيود بين هذه المغنية او تلك الراقصة، ما باله يفقد عقله واتزانه، وتتحرك روحية المحافظة العتيقة في فكره، فيروح يتصرف مع زوجته تصرف رجال الارياف والمتعصبين من اصحاب التزمت الخلقي، والتمسك بالتقاليد العشائرية حتى وان لم تعد تساوق الزمن وتماشي التطور.

ومع ذلك فقد خرجت اسمهان وراء احمد حين تم نقله الى المستشفى، وجلست في قاعة الانتظار في المستشفى، تنتظر نتيجة العملية الجراحية العاجلة له. بدا الحزن واضحا على محيا اسمهان، وبانت الكآبة في عينيها وفي حديثها مع من حادثوها في المستشفى، انها تتمنى ان لا تكون سببا في موت اي انسان كان، بله انسان تحمل اسمه، صحيح ان الخلاف بينها وبين احمد سالم قد استحكم، وقد خيل اليها بان النوايا الحقيقية لاحمد تجاهها قد وضحت، غير ان هذا لا ينفي من ضرورة اظهار العطف عليه، او التظاهر بذلك على الاقل امام الناس!.

وراحت تفكر وهي في قاعة الانتظار في المستشفى، ترى ماذا يقول الناس عنها، لو نشرت الصحف غدا، وبعض اصحاب تلك الصحف من الحانقين

عليها، لانها لا تجاملهم ولا تعيرهم كثيرا اهتمام خبر ما حدث؟ وكيف الامر اذا ما وصل الخبر الى السويداء والم به ابن العم زوجها السابق الامير حسن الاطرش؟ قد يكـون في وضـع حرج لو انـه ما يزال وزيرا اومحافظا للجبل، وقد يهون الامرلو انه تخلى عن اية مسؤولية في الدولة، ولكنه يشمت بها فعلا.

ومـاذا سيقـول عمهـا عبـد الغفـار الاطرش الذي يتولى وزارة الدفاع الآن في الحكـومـة السـوريـة يا ترى؟ انه لابد ان يناله الغضب لما وقع حتماً. وماذا سيقول اخـوهـا فؤاد في ذلـك، وهـو الـذي لم يتـدخـل قبـلا لا في امـر زواجهـا من احمد بدرخان، ولا في زواجها الاخير من احمد سالم؟ لقد خيل اليه، بعد ان تزوجت من احمـد سالم وانصرفت الى التمثيل والغناء، بانها قد طلقت دنيا المغامرات السياسية ومخـاطـرات التجسس، وحماقات الترف والجنون على موائد الخمر والميسر، فاذا بها الان تصبح نهباً للمتاعب، وهدفا للاحزان والآلام! وماذا ستقول دوائر التحقيق في الحـادث عنهـا يا ترى؟ سوف تدعي هي انهـا مجنى عليهـا وليست جانية، وان ضابط الشرطة هو الشاهد العدل لها في ذلك، فهل يدوس هذا الضابط على ضميره ويغير شهادته، كما كان يحصل ذلك دوما لدى رجال التحقيق وضباط الشرطة على الاخص؟

انهـا لا يخـامرها مثل هذا الظن السيء ابدا. ذلك لان اللواء محمد ابراهيم امام لولم يكن ذا ضمير حي لما اقحم نفسه في الدفاع عنها، وتعرض للرصاص بسبب ذلك. فليس لمن يعرض حياته للموت في سبيل انقاذ انسان معتدى عليه، ومعرض لخطـر المـوت، ان يغيـر شهـادتـه الاصليـة ويقـدم شهـادة مزورة ابدا. لقد كانت اسمهان مطمئنة الى ذلك تمام الاطمئنان.

ليس هنـالـك ادنى شك في ان غيـرة اسمهـان كانت شديدة جدا، وكانت لا تريـد ان تتصـل ايـة امـرأة، باحمـد سالم، بعـد ان تزوج من اسمهان، وتعهد بان يقضي معها بقية العمر. فلقد حدث ذات مرة ان طلبت تحية كاريوكا، احمد سالم بالتلفـون من منـزلـه ومعـه اسمهـان، وراحت تعاتبه على خيانته اياها، فما كان من اسمهان الا ان انفجرت غاضبة، وراحت تبكي، وتلح على احمد سالم بان يطلقها ما دام مرتبطا بتحية كاريوكا برباط ما.

كان ذهنها وهي تنتظر في المستشفى منشغلا بنتيجة العملية التي اجريت للمصابين احمد سالم واللواء محمد ابراهيم امام. لم تستطع ان تجاهر بالسؤال عن العملية كيلا تلفت الانظار اليها، او يغمزها البعض ممن يسمعون استفسارها. ومع ذلك هرعت نحو ممرضة ترتدي الثياب البيض كانت قد خرجت على التو من غرفة العمليات. واذ صافحت عينا الممرضة اسمهان، ابتسمت لها، قبل ان تبادرها اسمهان نفسها بالسؤال «خيرا ان شاء الله. لقد زال الخطر عنهما، ودبت فيهما الروح!!» وهكذا عاد الاطمئنان الى فؤادها سريعا، ونبذت اخطار الموت التي كانت ما تزال حتى تلك اللحظة عالقة بتفكيرها.

★★★

في هذه اللحظة تذكرت اسمهان مشروع زواج فاشل، ويبعث على الدهشة بل وحتى الضحك. فلقد سبق للمستشرق الانكليزي «سانت جون فلبي» الذي عمل فترة في العراق ابان حكم الاحتلال فيه، ومن ثم غادره ليضع خدماته تحت تصرف الملك عبد العزيز ابن سعود، مؤسس المملكة العربية السعودية، حيث اعلن اسلامه وتسمى باسم «عبدالله فلبى» ولعب دوراً خطيرا جدا في مصير السعودية وبقية دول الخليج العربي، واتجاهها الى امريكا بدلا من «الام» القديمة الشهيرة بريطانيا، ومع كل ما ناله فلبى من مجد وشهرة وثراء، بعد ان توسط لشركات النفط الامريكية في الحصول على امتيازات للتنقيب عن النفط في الاراضي السعودية، مع ذلك كله بقي «فلبى» جاسوسا لمن يدفع الثمن الاعلى لنشاطه[1]

لقد راح الحاج عبدالله فلبى هذا يطارد اسمهان في كل مكان يراها فيه، وكان يغدق عليها الهدايا الكثيرة، ويروح يعرض على اخيها فؤاد رغبته في الزواج من اسمهان، وان يأخذها معه لتعيش في المملكة السعودية. يا لجنون هذا الرجل وامثاله من الذين يملكون المال الوفير فيخيل اليهم بانهم يستطيعون بهذا المال ان يشتروا قلوب الغواني والملاح، مثلما تشترى الشاة من قبل القصاب؟!

لقد كان مراد فلبى من زواجه باسمهان ان يحقق للاستعمار الذي هو عمليه، مصلحة جديدة، والغريب ان اسمهان ما ان سمعت ما حدثها به اخوها فؤاد عن خبال فلبى وهذره، حتى ضحكت طويلا وقالت «عبدالله فلبى؟ يريدني زوجة؟

كيف يحدث هذا وهو في مقام جدي؟ اي هزار هذا؟

كانت اسمهان غارقة في مثل هذه الافكار والذكريات وهي ما تزال امام غرفة العمليات تنتظر النتيجة. وعلى حين غرة سمعت صوتا يقول لها «ان احمد في غيبوبة من اثر المخدر. وانك تستطيعين ان تعودي الى البيت لتستريحي فيه، ثم تقبلي الى المستشفى صباح الغد!!» ولكن عقل اسمهان كان يزجرها عن العودة الى «الفيلا». لقد صممت على ان لا تعود اليها لانها كانت مسرح الحادثة المفزعة، بل الفاجعة فكيف تدخلها الآن؟ انها لن تعود اليها لا وحيدة ولا مع احمد سالم. لقد رأت اصراره على قتلها، وليس من المستبعد ان يعيد الكرة مرة اخرى فيجهز عليها قبل ان ينجدها رجل كريم مثل اللواء محمد ابراهيم امام، الذي تلقى الرصاص في صدره نيابة عنها. في هذا الوقت كانت صديقتها ماري قلادة الى جانبها، وحين رأت ترددها عرفت ماكان يدور في خاطرها فقالت لها «خير لك ان تنامي عندي الليلة!».

★★★

في اليوم التالي للحادث وما بعده نشرت الصحف تفاصيل القصة بحذافيرها، واضفت عليها امورا خيالية لا اثر لها من الواقع قط، مما اشاع الحزن الشديد في قلب اسمهان وفكرها، ولم يكن امام الاسرة المؤلفة من الام وولديها فريد وفؤاد من مفر الا ان يعقدوا مجلسا خاصا فيما بينهم، درسوا فيه الاحتمالات المتوقعة للحادث والوسائل التي ينبغي اتخاذها لمواجهتها.

ولقد توصلت الاسرة الى قرارات متفق عليها في هذا الشأن. فقد تقرر عدم عودةاسمهان الى بيت احمد سالم، كما اتفقوا ان لا يتم الطلاق الناجز بعد الحادث مباشرة، لان من شأن ذلك ان يظهر اسمهان في نظر الناس بالغة القسوة، ولان الطلاق يفتح امامها مجال الانطلاق والانفلات وهو امر ذاقت الاسرة الهوان والعار من جرائه.

واقترح فؤاد ان يتصل بماري قلادة ويبحث معها امر التوصل الى حل تقبل به اسمهان وترضاه من دون ضغط او اكراه. ونفذ ما قرره فورا فالتقى بماري قلادة وافضى اليها بان الاسرة قد تعبت من اسمهان وان «اسمنا قد تلطخ بالوحل ولا

ندري ما نفعل . لسنا نريد ان نفرض عليها رأيا ، غير ان هذا لا يعني اننا يجب ان نظل مكتوفي الايدي . اننا سوف نفتح لها صدورنا كيما تختار الحل الذي ترضاه بنفسها ، فاذهبي اليها وقولي لها باننا على استعداد لكي نسمع رأيها في الموقف .

واستبق فريد الزمن وذهب الى اسمهان مواسيا ، ولم تتخلف امه عن اللحاق به لذات الغاية . اما فؤاد فانه اكتفى بمقابلة ماري قلادة ولم يذهب الى اسمهان .
استقر رأي ماري قلادة على انه ينبغي لاسمهان ان تختار الحل الذي ترتضيه ، وانه لكرم من فؤاد ان يفتح لها صدره ، بعد كل ما حدث ، وان من الخير لها ان تنتهز هذه الفرصة حتى تنقذ نفسها من المتاعب والمشاكل بالتأييد الذي تحظى به من اهلها .

انتحت ماري قلادة باسمهان ناحية ، وروت لها ما سمعته من فؤاد نيابة عن نفسه وعن امه واخيه . سرحت اسمهان طويلا ، وجاش الحزن في عينيها فقالت تخاطب ماري قائلة «هذه طاقة تفتحها لي السماء كيما اهرب من المتاعب كلها . قولي لفؤاد بانني قد شبعت من العقوق ، وشق عصا الطاعة ! قولي له بانني سوف اضع حدا لكل هذا ، سوف اتحرر من هذا الزواج ، حين يكتب الشفاء لاحمد ، فلست استطيع ان اتخلى عنه الآن ، لانه يعرف السنة الناس وما تهرف به .

حملت ماري قلادة الى فؤاد كل ما قالته اسمهان امامها ، وما ان انتهت من ذلك حتى بادرها فؤاد يقول «اسمعي يا ماري ! ليس هذا وقت التغرير او الخداع والمراوغة . انني اعرف جيدا احابيل اسمهان وحيلها ، واعرف مدى تسترك عليها ومداراتها . بل اقولها صراحة يا ماري ، ان كل ماضيك معي يبعث على الشك في صدق ما تقولين . لقد طلبت اليك عشرات المرات في ان تتدخلي معي لكي نحاول ان نصلح اسمهان معا ، لكنك كنت تخذليني في كل مرة .

الم احملك مني تهديداً الى اسمهان بالقتل؟ ماذا فعلت انت ازاء هذا التهديد؟ لقد اغريتها بالشجاعة وان تسخر من ذلك التهديد واكثر من هذا انك أفشيت لها السر بانني اريد ان اقتلها بالتعاون معك ! ! اسمعي يا ماري واصغي جيدا . انك متواطئة معها ، ولن ادع لك ، كما قلت قبل قليل ، اية فرصة لكي تغدري بي . تظاهرت ماري قلادة بالخوف مما قاله فؤاد ، وحاولت عن طريق هذا التظاهر ان تعرف ما ينوي فؤاد ان يفعله ، لكي تحمله سرا الى اسمهان وراحت

تقول:

«صدقني يا فؤاد هذه المرة! ارجوك هذه المرة حسب، بل دعني ان اعرف ما تريد ان تفعله اذا لم تصدق اسمهان في الوعد الذي تقطعه لك!». صمت فؤاد لحظة ثم قال «سوف اسعى الى طرد اسمهان من مصر!» فارتاعت ماري فعلا وقالت صائحة «لا يا فؤاد لا! انها تموت ان خرجت من مصر. ان مصر بالنسبة اليها تعني الحياة وتوازيها. فلم يعد لها امل في اي شيء كان. فافتح لها باب الرحمة وصدقها وانا التي اضمن لك ذلك!».

نظر فؤاد الى ماري قلادة في سخرية ظاهرة ثم قال لها «لن تضحكوا علي بعد اليوم!.. لن ينقذ اسمهان مما انتويته سوى الموت!.. الموت وحده هو الذي سوف ينقذها!»

وغادر ماري قلادة على الفور، وتركها فريسة للهواجس والانفعالات.

الفصل التاسع

مصرع اسمهان

عقد فؤاد العـزم على ابعـاد اسمهـان من مصـر. قـد ضاق بهـا ذرعـاً، ولم يطق صبراً بعـد الآن على كل ما كانت تفعله وتمـرغ به شرف الاسرة وشهرتها لقد منحها الفرصة تلو الفرصة، كيما تفيق من غفوتها، وتعود الى رشدها، وتصلح من شأنها، ولكنهـا لم تفعـل ازاء ذلـك شيئـا، لقـد قابلت اغضـاء الاسـرة عن نزواتهـا لعنـاد، والامعان في التهتك والابتذال.

ليس امـامـه الآن، قبـل ان يطلب الى السلطات المصرية اخراج شقيقته من مصـر، الا ان يقصـد الجبـل، ويبحث موضـوع اخته مع الامير حسن الاطرش ابن عمها وزوجها السابق، ومع عمه وعمها عبد الغفار باشا الاطرش ايضا. ونفذ فؤاد ما صمم عليه وسافر الى سوريا، وحط رحاله في السويداء عاصمة جبل الدروز. وكان اول من لقيه هناك هو الامير حسن في بيته.

وبعـد ان احتسى فؤاد قدح شاي فاتـح الاميـر حسن في الموضوع الذي جاء من اجله بقوله «اسمهان يا امير؟» كبت الامير حسن تنهيدة ملل يائس في فؤاده وقال متسـائلا «هل من جديد؟» فرد فؤاد يقول «ان جديدها قديم، وان تأريخها يعيد نفسه دومـا. لقـد تزوجت من احمـد سالم وخيـل اليها بان هذا الزواج سوف يؤذن بانتهاء المتاعب. غير ان المتاعب عادت وتراكمت، وكان في ركابها الرصاص والدم».

هزت العبارة الاخيرة كيان الامير حسن، وسر فؤاد لذلك لانه استطاع ان يثير حمـاسـة الاميـر للاستمـاع اليـه، بعـد ان بدا عليه الفتور، وعدم الاكتراث في اول الامر. مضى فؤاد يدق على اعصاب الامير المرهقة وهو يقول «اراد احمد سالم ان يستبقيهـا في البيت حين ارادت الخـروج لسهـرة ما فرفضت واذ ذاك اشتبك الاثنان

في معـركـة. هددهـا احمـد بمسـدسـه فسخرت منه، وتدخلت الشرطة في الامر، فاطلق احمد الرصاص عليها لكنه اخطأها واصاب نفسه ورجل الشرطة ايضا.

وهنـا سأل الامير حسن، وكأنـه كان يريـد ان يحدد مسؤولية اسمهان، قائلا «وهـل مات احـدهمـا؟» فرد فؤاد من دون ان يبتعـد عن هدفـه يقـول «لقد نجيا من المـوت ولكن ما العمـل مع اسمهـان؟ ان كل مبلغ علمي عنهـا انهـا سوف تطلب الطـلاق من احمـد سالم، ومن ثم ستحصـل عليـه، واخيـرا تعـود الى التحـرر والانطـلاق، الى الحـريـة التي تكبدنا المتاعب والهموم، وتجر علينا الويل، فلابد من حل نهائي لهذا الامر كيما نحمي اسم الاسرة!».

خيـل الى الاميـر حسن بان فؤاد سوف يقتـرح عودة اسمهـان الى الجبـل، ولـذلـك حاول ان يحـول الحـديث الى جهـة اخرى فقال: ينبغي لنا ان نعرف اولا نتيجـة الحـادث، فانت تقـول بان الرصاص اصاب احمد سالم ورجل الشرطة فهل اطلعت على تقـريـر الطبيب عنهمـا؟» احس فؤاد بالخطة التي ارادها الامير حسن، ولذلك اجتذبه الى لب الموضوع قسرا بان قال «لقد تجاوز المصابان منطقة الخطر، وما هي الا ايام ويكتب لهما الشفاء. وليس في التحقيق اية ادانة لاسمهان. وان ما اخشاه هو تركها لوحدها، ولابد ان اعثر على حل للمشكلة قبل ان يغادر احمد سالم المستشفى!». وقبـل ان يبـدي الاميـر اي تعليق او قول، تحدث فؤاد من دون تردد يقـول «لقـد طلقت اسمهـان بصفة شفوية، وليس في يدها اي دليل على وقوع هذا الطـلاق. فاذا ما قلت انـك لم تطلقهـا، وانـك تريـد عودتهـا، فان هذا الامر سوف يحمل وزارة الداخلية المصرية على طردها من مصر».

التـزم الاميـر الصمت تمـامـا، ولم يتحدث باي شيء كان. لقد تمثلت الآن امامه ابواب من المتاعب تؤدي الى بعضها البعض وهو لا يريدها، ولا قبل له بها. ولـذلـك اراد ان يفر من هذه المتاعب المتوقعة مسبقاً، فقال بصراحة «ولكنني لا اريد عودتها اليّ!» ورد فؤاد وفي صوته لمسة من عتاب «لست اريد عودتها اليكم بالمعنى الصحيـح، انمـا اريد ان نستدرجها معا الى الجبل، ونبعدها عن القاهرة، ذلك ان سلطـات الامن هنـاك لا ترغب في اقـامتهـا ومكـوثها فاذا ماغادرت اسمهان القاهرة مرة، فانها لن تعود اليها الى الابد! هل تفهمني يا ابن العم؟».

اجاب الامير حسن متسائلا، هل تحسب ان مثل هذا الحل يجدي نفعاً؟، فاجاب فؤاد يقول «ان كان يجدي نفعا اولا يجدي، فتلك مسألة ارجو ان تتركها لي، لقد قصدتك يا ابن العم لان اسمهان تعنيك وتهمك انت بالذات. ولست اطلب منك ان تعيدها اليك، وانما اطلب بان تعيدها الى الجبل، وهي تحمل جواز سفر سوري، وان من اليسير اخراجها من مصر اذا ما استطعت ان تحصل لي على رسالة من سلطان باشا الاطرش، واخرى من عبد الغفار باشا الاطرش الى المسؤولين في مصر!».

اعمل الامير حسن تفكيره في هذا القول، وبدأ يهضم هذه الفكرة. فاذا كانت الحيلة قد اعيته مع اسمهان دوما، فان التدخل في الامر لخاطر فؤاد ابن العم الذي لاذ به، واجب على الاقل، ولذلك قال لفؤاد على الفور، بل واقابل رئيس الجمهورية السورية الشيخ تاج الحسيني واحصل منه على رسالة توصية في هذا الشأن.

★★★

استقبل عبد الغفار باشا الاطرش فؤادا في مكتبه بوزارة الدفاع السورية، وقدم له القهوة المرة، ولم يرد فؤاد ان يضيع وقت الوزير سدى فدخل الى الموضوع رأسا وقال «لقد جئت يا عمي ارجوك في امر هام. فانت تحتل منصبا خطيرا، ولك كلمة مسموعة، ولقد كان الامير حسن يود ان يحضر معي لكي يضم صوته الى صوتي، لولا انه توجه الى سلطان باشا الاطرش ليحصل على تأييد للموضوع ومن دون ان نضيع الوقت!

بدت علائم الاهتمام على وجه عبد الغفار باشا، وكانت نظراته الحانية قد شجعت فؤاد على المضي في حديثه فقال «اسمهان يا عمي غدت مجنونة! فهي لا تستمع الى رأي، ولا تعمل بنصيحة، وتحيا حياة صاخبة دون ادنى قيود او ضوابط. لقد تزوجت ثم تخاصمت مع زوجها! لقد يئست منها، ولم يعد امامي الا ان اطرق بابك كيما تساعدني على شفائها من جنونها!».

بانت الدهشة واضحة جدا على وجه عبد الغفار باشا فقال مستنكرا «عمن تتحدث يا فؤاد؟ عن اسمهان؟ ان اسمهان التي تقول عنها انها مجنونة هي التي

جنبت جبل الدروز ويلات الحرب» قاطعه فؤاد في يأس يقول «انني اعرف كل هذا يا عمي! ولكن اسمهان هي اسمهان الطائشة. لقد اجتمعت فيها كل المتناقضات يا عم فلم اجد ما استطيع ان اسميها به سوى انها مجنونة!»

قهقه عبد الغفار باشا ضاحكا، ورد على فؤال يقول «اسمح لي يا ابن اخي ان اقول، اسمح ان اقول لك يا فؤاد، بانك انت المجنون وليست هي اسمهان!!» اثار هذا الجواب دهشة فؤاد فراح يضرب كفا بكف. لقد كانت هذه هي النتيجة، وكان هذا هو الجواب! يتجشم كل هذه المتاعب في سبيل الحفاظ على اسم الاسرة ثم ينعت بالجنون، وتكون اسمهان هي العاقلة المتزنة؟ ماأعجب كل هذا؟ هذا؟

تضايق فؤاد كثيرا جدا. فلم يكن في مستطاعه ان يرد بشيء على عمه. ولاحظ عمه هو الآخر ضيقه وبرمه، فانهى موجة الضحك التي غمرته وقال يسأل فؤاد «لابد انكما، انت واسمهان، قد تشاجرتما؟». رد فؤاد بصفة بان منها انه يريد اطالة الحديث حول الموضوع، وعدم اغلاقه فقال «اننا منذ ثلاث سنوات ونحن نتشاجر يا عماه! لقد طردتها من البيت لانها تسيء استغلال حرياتها. ولقد تزوجت مرتين من رجلين غير درزيين، وباءت تينك الزيجتان بالفشل، وقد غدا بقاؤها في القاهرة وصمة عار لنا!

هنا التزم عبد الغفار باشا الاطرش جانب الجد تماما فقال لفؤاد «وماذا تريد مني؟» تشجع فؤاد كثيرا لهذا السؤال فاجاب «اريد منك رسالة الى المسؤولين في مصر بشأن اسمهان!» ومن دون ان ينبس عبد الغفار باشا بكلمة سحب ورقة من درج مكتبه وكتب رسالة الى المسؤولين المصريين ثم سلمها الى فؤاد، كل ذلك لكي يرضيه ولا يرده خائبا.

★★★

وضع فؤاد رسالة عبد الغفار باشا الاطرش في جيبه مع رسالة سلطان باشا الاطرش التي اتى بها الامير حسن له من الجبل، وشكر عمه عبد الغفار باشا كثيرا، واستأذن بالخروج من مكتبه. بقي عليه الآن ان يحصل على رسالة في ذات المعنى من الشيخ تاج الدين الحسيني رئيس الجمهورية السورية كان ذلك في اليوم الثالث

عشر من شهر تموز سنة ١٩٤٤ توجه فؤاد فورا الى مقر رئاسة الجمهورية فقدم طلبا الى الرئيس يطلب فيه مواجهته. كان الامير حسن معه في هذه المرحلة، وحين ابلغه مكتب رئيس الجمهورية بان الرئيس سوف يقابله في اليوم الخامس عشر من تموز، وهو يوم السبت، قال فؤاد يخاطب الامير حسن، «الامر بسيط، فليس بيني وبين الرئيس سوى يوم الجمعة واواجه الشيخ تاج الدين. انه يعرف اسمهان لابد انه سوف يساعدنا في امر عودتها الى الجبل».

وفي ليلة الخميس عاد فؤاد مع الامير حسن الى الجبل. كان عيد ميلاد «كامليا» سوف يحل يوم الجمعة الرابع عشر من تموز وقد شاء الامير حسن ان يحتفي بهذا العيد لكي يدخل السرور على فؤاد ابنته، ولا يدعها تشعر بانها، مذ تركتها امها، لم تعد تحتفل بعيد ميلادها. وما ان اصبح صباح يوم الجمعة حتى راحت كاملیا تملأ البيت صخبا ومرحاً. كانت تقفز من حجر ابيها لتلف يديها حول رقبة خالها، ومن ثم تعود الى حجر والدها.

طافت افكار محبولة في رأس فؤاد عند هذه اللحظة بالذات. لم لا يتخلص من اسمهان بقتلها؟ لماذا لا يفعل ذلك وقد فشل فشلا ذريعاً في تقويمها؟ كانت كاملیا تجلس على رجليه، وكان الامير جالسا في مكانه ينظر اليهما. وهنا قال فؤاد يخاطب الصغيرة كاملیا «قولي يا كاملیا هل تبكين لو ماتت امك؟ اجابت الطفلة وقد صدعها هذا السؤال «بالطبع ابكي» فاضاف خالها يسأل «وتلبسين عليها السواد، وتعلنين الحداد؟؟» ارتعش قلب الصغيرة بالالم، وتطلعت الى ابيها تستنجد به، ثم انخرطت في البكاء وهي تقول «اجل يا خالي.. اليست هي امي؟»

تضايق الامير حسن من هذا الوضع مضايقة شديدة، وشق عليه ان تبكي ابنته في يوم عيد ميلادها، فانتهز فؤاد بحدة معاتباً وهو يقول «هل يوجد خال في الدنيا يستقبل عيد ميلاد ابنة اخته بمثل هذه الطريقة؟» واذ درى فؤاد بانه قد تمادى فيما اظهره للصغيرة، اعتذر عما بدر منه ولاذ بالصمت.

في المساء غصت الدار بفاتنات صغار من عمر كاملیا، او اصغر، او اكبر منها ليشاركن كاملیا احتفالها بعيد ميلادها. وحين اكتمل الجمع واوقدت الشموع، احست الصغيرة كاملیا بغصة حين شردت عن الفاتنات الصغيرات، فاتجهت نحو

ابيهـا والـدمـوع تكـاد تتـرقـرق في عينيها، لتقول له «ابتي ! لماذا لم تأت امي لكي تحضر عيد ميلادي؟

اجـابهـا ابوها وهو يخفي لوعة حقيقية في حنايا صدره «سوف تجيء في عيد ميـلادك المقبـل. ان لديهـا اشغالا كثيرة في القاهرة» وكدت كامليا لم تقنع بما قاله ابوها قط، بل عادت تقول له باصرار «انت تضحك مني يا ابي ! كانت عندها اشغال كثيـرة في القـدس، وبيـروت ودمشق. ومع ذلك فان كل هذه الاشغال لم تعقها عن حضور عيد ميلادي !».

مضت كامليـا الى المـائـدة وهي تحس بشيء من الانقبـاض، وتكأكأت الفتيـات عليهـا ومن حولهـا ضاحكـات مغنيـات، لكنها كانت منشغلة عنهن بتذكر حفـلات اعيـاد ميـلادهـا السـابقة، لقد تصورت امها جالسة الى جوارها وقد ملأت فمها بالهواء تأهبا لاطفاء الشموع.

تاقت روحهـا الى هذا الحلم، وحنّت اليـه، فاسـدلت اهـدابهـا على عينيها وراحت تتخيل الطيف الحبيب الذي حل في المكان، طيف امها السماوي الباهر.

تجمعت الفتيات من حولها كالعقد المنظوم، وكانت كامليا تتموج بينهن اشبه بالـزهـرة اليـانعـة، بدأت الفتيـات في ترديـد اغنيـة اطفـاء الشمـوع وشـارفن على نهايتها.. وفجأة؟؟؟

دق جرس التلفـون، فهب فؤاد واقفـا متـوجسـا فرفع سماعة التلفون الى اذنه ليسمـع متحـدثـا يقـول له «من انت؟ فؤاد ام حسن؟» اجاب فؤاد «انا فؤاد» فخاطبه المتحـدث يقـول «انـا هايـل الاطـرش مديـر الامن العـام في السـويـداء: العوض بسلامتك، والبقية في حياتك!!»

احسّ فؤاد بان خنجـرا قد انغـرس في قلبه، وماتت اخر كلمات الاغنية على شفاه الفتيات الصغيرات حين رأين وجهه وقد امتقع. واستطرد هايل الاطرش يقول «مـاتت اسمهـان يا فؤاد!» غاصت هذه العبـارة الى احشـائه فراحت تمزقها، ولكنه افـاق بسـرعـة على ظن او احتمـال، فرد على هايـل يقـول له «هـذه دعـاية سخيفة لفلمهـا. فهي تمـوت في فلمهـا غرام ونتقـام ولابـد ان يكون «ستوديو مصر» قد اراد بهذه الاثارة ان يجذب الناس الى مشاهدة الفلم؟»

غيـر ان هايل الاطرش استحف به لهذا التصور، واستنكر منه ان ينصرف عن هذا الحـادث المـرّوع الى الخـرافـات والاوهـام، فقـال له ينتهره «اسمع يا فؤاد انا نفسي سمعت الخبـر من اذاعـة لنـدن. لقـد ماتت اسمهـان. انقلبت بهـا احـدى السيارات في ترعة فماتت في الساعة العاشرة من صباح هذا اليوم!!».

صدقت نبـوءة العـراف الـذي قال لهـا ذات مرة بانهـا سوف تموت في ريعان الشبـاب. لقـد ماتت إسمهـان، وطـويت الصفحـة العجيبـة في السجل المدهش العجيب. لقد تحطمت القيثارة فخمدت موسيقاها، ونفذ الزيت من المصباح فخبا نوره الى الابـد. مضت في ميعـة الصبـا وفي ذروة المجـد الفني. ذوت الـزهرة في الـروض ثم لم تلبث ان جفت وتهـاوت وريقـاتهـا تتسـاقـط على الارض، وتذروها الرياح في كل مكان.

«يا للخســارة يا اسمهـان! ثلاثة اعوام وانت بعيدة عني، والقطيعة بيني وبينك تكـاد تكـون مستحكمـة، ولكن روحـك كانت، مع كل ذلك، تحوم حولي. وكلما تقت اليك، واشتقت الى رؤيتك، تسللت متخفيا لكي اراك، واملأ عينيّ منك، يا لوعتاه لقد مضى ذلك العهد وانقضى!

لقد انتهى الخصام والصراع معك، فلا لوم ولا عتاب، ولا حديث عن شجرة الاسـرة الاصيلة، ولا تثـريب. لقد هوى الفرع الذابل، وتلقفته يد الفناء. فلم تعد الـرسـائـل التي حصلت عليها تجدي نفعا، ولم يعد الزواج يفيد ولا الطلاق، فانت اليوم، وبعد الآن، مجرد ذكريات واطلال!».

كان الاميـر حسن الاطـرش قد امسـك بسماعة التلفون، بعد ان تهاوى فؤاد ساقطا على الارض من هول النبأ، فراح يحدث هايل الاطرش ويستفسر منه فحوى النبأ، واذ ايقن ان ما ذكره هايل امر واقع، صرف الفتيات قبل ان يحولن البيت الى مناحـة، واحتوى كاملیا بين يديه لكي يخفض من صراخها، ثم ارتمى على مقعده وهـو يجهش بالبكـاء، في حين غاب فؤاد في لجـة احـزانـه عن كل ما في الكـون، وراحت الشموع تذوب وتذوب ثم تفنى مثلما يذوب العمر ويفنى!

★★★

ما ان علمت اسمهـان بسفـر اخيها فؤاد الى جبل الدروز، حتى غضبت اشد الغضب، كانت تخشى ان ينفذ تهديداته لها، او ان يرغم اعمامها وزوجها السابق الامير حسن على ان ينتزعوها من القاهرة انتزاعاً، ويفرضوا عليها الاقامة الجبرية في الجبل. وحين طمأنتها صديقتها ماري قلادة بانها سوف تحبط كل مخططات فؤاد، وستبقى معها الى النهاية، لم يهون هذا الوعد من جانب ماري من مخاوف اسمهان مما بيته فؤاد ضدها.

وحين بدأ التحقيق مع اسمهـان عن حادث اطـلاق النـار عليها، احدث هذا التحقيق ضغطـا شديـدا على اعصـابهـا، فلاذت بالفراش لتستريح. اشارت عليها «شلتهـا» المصـاحبـة لها، بان من الافضل لها ان تخرج الى رأس البر فتريح اعصابها المـرهقـة، بقضـاء يوم وبعض يوم على الشـاطىء الهـادىء ذي الامـواج الوادعة، وعملت بهـذه النصيحـة فاستأذنت من الاستاذ يوسف وهبي في السفر الى رأس البر فاذن لهـا، وخـرجت من القـاهـرة في الثـامنـة صباحا في سيارة شركة ستوديو مصر، ومعها ماري قلادة. وحين كانت السيارة تعبر احدى الترع ما بين «طلخا» و«دمياط» هوت احـدى عجـلاتها فاندفعت مسرعة وفلت مقود السيارة من يد السائق فقفز منها قبل ان تسقط في الترعة لتموت اسمهان غرقاً هي وصديقتها ماري قلادة! وذلك في ضحى يوم الجمعة الرابع عشر من تموز ١٩٤٤.

الفصل العاشر

من كان وراء مصرع اسمهان؟

قبل ان نشير الى الايدي التي شاركت في خطة اغتيال اسمهان وفي تنفيذها، وتوجيه ادلة الاتهام الى هذه الجهة اوتلك، يجدر بنا ان نشير الى وجود بعض الخلاف في الروايات التي رويت عن مصرع اسمهان. فالمذكرات التي نشرها فؤاد شقيق اسمهان في الاعداد الخمسة عشر من مجلة «المصور» المصرية الصادرة خلال اشهر آذار ونيسان، وايار وحزيرات من سنة ١٩٦٠ قد ذكرت بصراحة انه لم يكن مع اسمهان في السيارة التي هوت في ترعة النيل سوى السائق وصديقتها ماري قلادة التي ماتت معها غرقا هي الاخرى.

ولم يذكر محمد التابعي في كتابه «اسمهان تروى قصتها» المطبوع في القاهرة، اي شيء عمن كان مع اسمهان في السيارة التي استقلتها الى رأس البر، واكتفى بالقول بانه سمع هو وصديقاه احمد الصاوي محمد وتوفيق الحكيم، عندما وصل القطار الذي استقلاه الى القاهرة، في محطة «المنصورة» بحادث مصرع اسمهان.

غير ان مجلة الكواكب التي تصدر شهريا عن دار الهلال بمصر ذكرت في عددها التاسع شهر تشرين اول ١٩٤٩، ان احمد سالم كان قد اصيب بطلق ناري حين وقع حادث وفاة اسمهان نتيجة انقلاب السيارة بها في ترعة، وان صديقه الدكتور اسماعيل السباعي حاول عبثا اقناعه باجراء تخدير موضعي، بينما اصر احمد سالم على ان يكون التخدير تاما، الامر الذي اصاب امعاءه بالشلل التام فادى ذلك الى وفاته.

فاذا صحت رواية مجلة الكواكب هذه فان ذلك يدل دلالة اكيدة على انه كان

لاحمد سالم ضلع في مؤامرة اغتيال اسمهان، وان الذين نفذوا تلك المؤامرة اطلقوا النار على احمد سالم للتخلص منه كيلا تنكشف خيوط المؤامرة، ويشخص القائمون بها.

والحقيقة ان هناك عدة جهات عربية واجنبية كانت تسعى الى تعريفة اسمهان جسدياً. ففي مقدمة هذه الجهات الاجنبية كانت بريطانيا منذ البداية، قد قررت التخلص من اسمهان بعد ان سمح لها بالدخول الى سوريا ولبنان عن طريق التفاهم مع الدروز وامراء البادية السورية. وما ان رأت بريطانيا ان اسمهان اخذت تحاول - بعد ان امسك الانكليز ايديهم عنها، ان تتصل بالمحور عن طريق السفير الالماني الفون بابن في انقرة، حتى ايقنت، اي بريطانيا بان اسمهان قد تغرى من جانب الالمان بمال اضخم من المال الذي بذله لها الانكليز، فقررت التخلص منها. ولقد تأيد ذلك بما ذكره فؤاد الاطرش في مذكراته من ان اطلاقة نارية وجهت ذات يوم الى اسمهان حين كانت تسكن في القصر الذي نزلت فيه في بيروت على اثر الاحتلال الانكليزي لسوريا ولبنان.

وذكرت بعض الاوساط ان الملك فاروق كان وراء مصرع اسمهان، وان السبب في ذلك يعود الى ان اسمهان كانت تعرف الكثير عن اسرار «نازلي» ام فاروق حين كانت تنزل هي الاخرى في فندق الملك داود بالقدس، فاراد فاروق بقتل اسمهان ان يقبر فضائح امه.

وقال اناس اخرون ان زوجها السابق الامير حسن الاطرش هو الذي رتب قضية مصرع اسمهان بالاتفاق مع شقيقها فؤاد، ومهما يكن فان لتحركات المحور والانكليز والفرنسيين نصيباً يذكر في التخطيط لاغتيال اسمهان، اكثر مما ينسب الى فاروق او الامير حسن الاطرش او اخيها فؤاد. والغريب في الامر ان فلم «غرام وانتقام» الذي لم يعرض الا بعد مصرع اسمهان، كان يبدأ بمشهد نعش مرفوع على الاكتاف في حين كان يوسف يعزف كالمخبول على قيثارة في يده الحانا حزينة صارخة فكأن هذا المشهد كان من البداية انذارا بالمصير الفاجع لذي صارت اليه اسمهان قبل ان تكتمل عيناها بمشاهدة فلمها العتيد الثاني والاخير «غرام وانتقام».

★★★

لقد ذكرت بعض الصحف العربية التي تناقلت مصرع اسمهان، انها كانت قبل وفاتها بمدة قليلة قد سجلت لحساب الاذاعة البريطانية في لندن، وتحت شعار «من لندن فقط» آخر اغنياتها، وهي للشاعر المهجري الشهير المرحوم «ايليا ابي ماضي» ومطلعها

مات النهار ابن الصباح فلا تقولي كيف مات
فدعي الكآبة والأسى واستبشري مرح الفتاة

اما اول قصيدة غنتها اسمهان وسجلتها على اسطوانة في القاهرة في سنة ١٩٣٢، فهي قصيدة «اين الليالي» وهي من الحان الموسيقار محمد القصبجي

اين الليالي سببت سقمي
يا ليلة بعدها عيناي لم تنم
مرت كطيف خيال كان يسعدني
لو دام لكنه ويلاه لم يدم
يا نظرة ارسلت سهما الى كبدي
فبات من حزنه في شدة الالم
سرى الهوى كلهيب النار في جسدي
فالقلب في حرقة والجسم في سقم
سهدي انيني عذابي لوعتي ألمي
دموع عيني غدت ممزوجة بدمي
يا ربة الحسن ان لم ترحمي كبدي
لابد يوماً تعاني زفرة الندم
اين العهود اللواتي عللت أملي
لو طال هجري لافضى بي الى سقمي
اني على العهد مهما طال بي امري
وحق من علّم القرآن بالقلم

ولقد تحدث المرحوم الفنان الراحل الكبير يوسف وهبي عن اسمهان حين شاركها في تمثيل فلم «غرام وانتقام» فقال «عرفتها فنانة موهوبة قلّ ان يجود الزمان بمثلها. تحمل في يدها صولجان الامارة الاجتماعية، وتمسك بيدها اليسرى صولجان الامارة الفنية، فهي اميرة الجبل، وهي اميرة الفن في آنٍ واحد.

تجلى الله عليها بصوت من السلسبيل العذب، فلم تبخل به على الشرق اجمع، بل غنّت، واجادت، واطربت، وحملتنا على اجنحة صوتها الفضية الى سمائها العلوي! ونزلت من كرسيها العالي لتخدم الفن تمثيلا وغناء، فكانت الممثلة الطيّعة المتفانية في فنها بلا كبر، ولا عجرفة.

وكانت الزميلة الدمثة الخلق، البارة بفنها واهله. وكانت في النهاية كالسراب روحاً وكالخلود فناً.

★ ★ ★

من اشهر الاغاني التي غنتها اسمهان في فلم «غرام وانتقام» اغنية ليالي فيّنا، وهي من نظم احمد رامي والحان فريد الاطرش

ليالي الانس في فيّنا	نسيمها من هوى الجنة
نغم في الجو له رنّة	سمعها الطير بكى وغنّى
ما بين رنين الكاس	ورنة الالحان
آدي القوام ميّاس	يا عاطف الاغصان
تم النعيم للروح والعين	ما تخلّي قلبك يتهنّى
آدي الحبايب عالجنبين	ايه اللي فاضل ع الجنّة
ساعة هنا لو تصفى لك	تنسى معاها الكون كله
ايه اللي راح يبقى لك	من النعيم ده غير ظله
خيال ساري مع الاوهام	وطيف جاري مع الاحلام
وليه تصبر على الايام	تفوت من غير ما تتهنى
امرح واشرب	افرح واطرب
ابعث قلبك يسبح ويطير	في الدنيا دي يلقى له سمير
يهنا بحبّه ويسعد وياه	ويمني شباب القلب معاه
دي ليلة الانس في فينا	نسيمها من هوى الجنة

مصادر الكتاب

١ـ اسمهان تروي قصتها ـ تأليف محمد التابعي ١٩٦١

٢ـ مذكرات فؤاد الاطرش نشرت في خمس عشرة حلقة في اعداد مجلة «المصور» الصادرة في اذار ونيسان وايار وحزيران سنة ١٩٦٠ .

٣ـ اسمهان واحمد سالم مجلة «الكواكب» العدد التاسع لسنة ١٩٤٩ .

٤ـ اعداد متفرقة من مجلة «كل شيء والدنيا» من منشورات دار الهلال للسنة ١٩٤٤

٥ـ جريدة «الشهباء الدمشقية» عدد ١٦ تموز ١٩٤٤

٦ـ كراسة «ستوديو مصر» عن فلم «غرام وانتقام» .

تحت الطبع

سامية الغجرية (قصة اجتماعية)

جاهز للطبع

١ـ مصرع الملك غازي

٢ـ الجزء الثالث من قصص الجاسوسية في البلاد العربية

٣ـ انقلاب بكر صدقي وثورة ايار ١٩٤١ للدكتور محمد ابو طربوش

٤ـ نوري السعيد : دراسة في الزعامة العربية بقلم «اللورد بيرد وود»



اسمهان!

«كوكب دري وهاج سطع نوره على غير انتظار»
«في سماء الجمال، والفن، والغناء»
«فراح يحلق ويسمو حتى بلغ اجواء الجوزاء»
«ولكن!.. وعلى حين غرة هوى ذلك النجم الساطع»
«نثارا على ارض البسيطة، ولم يبق منه من اثر»
«سوى ذكرى ذلك الصعود الشاهق، والهبوط المريع!»
«عن بعض الاسرار الخفية لهذا الكوكب الدري»
«يتحدث هذا الكتاب!»

بغداد - الاول من نيسان ١٩٨٨ - سليم طه التكريتي

منشورات دار العصور

السعر ٢ دينار
تصميم الغلاف: ليث متي

خمسة آلاف نسخة
مطبعة الانتصار - خالد البرلوي - بغداد